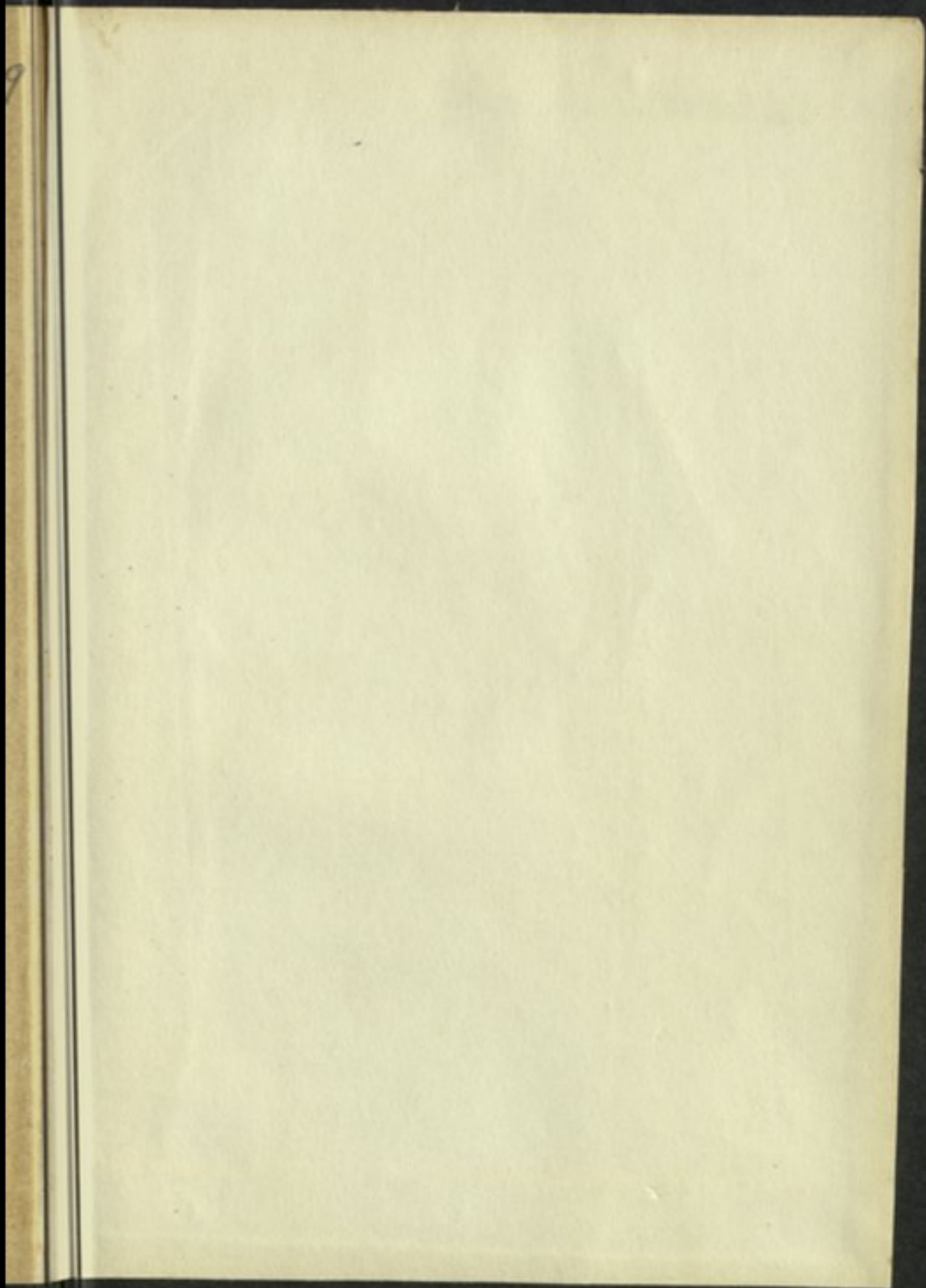


A. U. B. LIBRARY

تجدید صالح الدقر
تلفون ۲۲۹۷۷

Handwritten text at the top of the page, possibly a title or header, which is mostly illegible due to fading and bleed-through.



923.2549

J61aA

القائد الأعظم
محمد علي جناح

تأليف

عباس محمود العقاد

حقوق الطبع محفوظة لدار الهلال

LIBRARY
UNIVERSITY OF TORONTO
1911

مقدمة المؤلف

كتبت عن القائد الأعظم كلمة تقدير يوم سمعت بنعيه منذ ثلاث سنوات ، اعتمدت فيها على المعلومات المتفرقة التي تناثرت إلينا من أخبار الصحافة والاذاعة ، وكلها نتف قصيرة لا تجتمع منها سيرة وافية تكفى للتعريف بالرجل العظيم

ولكن هذه المعلومات كانت كافية للتنويه بعظمة الرجل، وان لم تكن كافية لتأليف كتاب في سيرته ، وقد كان تأليف كتاب عن « جناح » من الموضوعات التي أعقد النية عليها في سياق متابعتي للحوادث العصرية ، ثم أترك تحقيقها حينه كلما استطعت التفرغ لموضوع بعد موضوع

وقد كان محمد علي جناح وفاق شرط العظمة عندي بين زعماء الأمم ودعاة الأمم المغلوبة الى الاستقلال

وشرط العظمة عندي في هؤلاء الزعماء : هممة الجبايرة من رجال العمل ، وطموح المثاليين من المؤمنين بالفكرة . . وهما خصلتان لا تخفيان من أقل الاخبار التي تروى عن جناح في ابان جهاده . فانه رجل تصدى بهمة العالية لتحقيق فكرة مثالية ، سمع بها « الحبراء » فأجمعوا - أو

كادوا يجمعون - على أنها مستحيلة ، وان جناحا يتخبط
فى الظلام وراء خيال لا يطلع عليه النور
وطلع النور على الحيال ، فاذا هو « خيال » ثابت كالجبال
كان جناح وفاق شرط العظمة بهذا وبما يزيد عليه ،
وهو الخلق المكين الذى يقاوم كل اغراء ولا يتخاذل أمام
الوعيد

والتمست المراجع الوافية عنه فلم أجدها ، ثم تتابعت
هذه المراجع سنة بعد سنة ، واطلعت منها على الكتب وعلى
الفصول ، ومنها ما كتبه أبناء الباكستان وما كتبه المنصفون
من الغربيين فى عرض الكلام على السياسة الشرقية ، ومنها
ما كتبه من أبناء الغرب والشرق أناس غير منصفين ، ولكنهم
يروون على الرغم منهم أخبار الرجل فتعليه وتزكيه من حيث
يريدون انتقاصه والقدح فيه ، ورب واقعة يسوقها العدو
فيسجل بها شهادة لا تتهم ، لانها تكشف عن مواطن اللثام
لا يقصدها الأعداء

وتجمعت المراجع التى تكفى لتأليف كتاب عن القائد
الأعظم فألفت هذا الكتاب



قال لى بعض أصحابى حين علموا اننى اكتب كتابا عن
جناح : « لا جرم وقد كتبت عن غاندى الا تفوتك الكتابة
عن جناح ! »

خاطر طبيعى لا غرابة فى سبقه الى الاذهان ، لان السبب

الذى تخيلوه للكتابة عن محمد على جناح سبب وجيه ، فمن
حق الباكستان علينا ألا نسكت عن زعيمها وقد أعطينا
الهند حقها فى زعيمها ، ومقام القائد الأعظم فى الشرق
قرين لمقام « المهاتما » الذى سميناه بالروح العظيم

على أن هذا السبب « الوجيه » لم يكن هو فى الواقع
سبب تأليف الكتاب

لأننى « أولا » لم أولف كتابى عن غاندى رعاية لدولة
الهند ولا لمرجع من مراجع السياسة ، ففى الكتاب ما لا يوافق
الهند ولا يوافق الباكستان

انما ألفت الكتاب عن غاندى « بحقه الشخصى » أو بحق
عظمته ومغزى هذه العظمة فى تاريخ الانسان

ولأننى « ثانيا » قد نويت الكتابة عن جناح وعن غاندى
فى وقت واحد ، ولكننى وجدت المراجع لكتاب غاندى
متوافرة متكاثرة ، ولم أجد المراجع لكتاب القائد الأعظم
كاملة أو قريبة من الكاملة ، الا منذ بضعة أشهر

وكتبت عن جناح كذلك « بحقه الشخصى » وحق عظمته
ومغزاها الحالد فى تاريخ الانسان

فالكتابة عن القائد الأعظم واجبة لأنها تجلو للناس ،
وللشركيين خاصة ، صورة من صور العظمة الانسانية

وهى عدا هذا واجبة لدلالاتها فى تفسير أطوار الأمم
وأسرار التاريخ ، والزاد الذى يتزوده الدارسون من سيرة
جناح فى هذا الباب أوفر من زادهم فى سير عشرة من العظماء
وهذا الذى عنينا به عناية خاصة فى وصف عظمة الرجل

ووصف العظمت التي يخرج بها نقاد التاريخ من نشأة
الباكستان

وبين يدي القاريء صورة من صور العظمة الانسانية ،
ودرس لا نظير له في فلسفة التاريخ، أو فيما نسميه العوامل
التي نتطلع اليها من وراء حركات التاريخ

عباس محمود العقاد



سیاسی صادق

نادر المثال

قرأت أكثر من مائتي بيان للقائد الأعظم زعيم الباكستان محمد علي جناح (١) .٠٠ منها الخطب في المحافل، والرسائل الى الاصصدقاء والخصوم ، والتصريحات في الصحف ، والمناقشات والمساجلات : ما هو مكتوب منها وما هو ملفوظ مرتجل، فخرجت منها بعقيدة راسخة عن عظمة هذا الرجل . ان القائد الأعظم ولا شك رجل عظيم نادر المثال بين عظماء الرجال

لم أتبين هذه العظمة من بلاغة أسلوبه ، فان الزعماء الذين هم ابلغ منه كثيرون .٠٠ ولم أتبينها من سعة معلوماته ، فان سعة المعلومات والعظمة لا تتلازمان في جميع الأحيان .٠٠ ولم أتبينها من قوة العقل ، فقد يكون العقل قويا وصاحبه غير عظيم ، بل قد يكون العقل قويا في الشر والاذى فلا يحسب صاحبه من عظماء الأمم ولا من عظماء الانسانية .٠٠

لكنني تبينتها من خصلة نادرة جدا في قادة الشعوب ، وهي « الصدق الصريح في جمع الاقوال وجميع الاحوال »!

(١) يلقب جد القائد الأعظم بجنه أي « النحيف » باللغة الكوجراية ، وقد آثرنا الاسم الشائع بين قراء العربية على طريقة العرب في نقل كثير من الاسماء



محمد علی جناح

فمن المألوف في قادة الشعوب أن تكثر في أقوالهم
الوعود الطنانة والكلمات البراقة ، وأن يكون خطابهم
للجمهير كالتنويم الذي يسوقها الى الطريق التي يهواها
الخطيب

ويتفق كثيرا أن يكون الزعيم مخلصا غيورا على مصلحة
قومه وهو يتصرف بتلك الاساليب ٠٠ ولكنه يخاطب الناس
بما تعودوه ولا يبالي أن يقنعهم بالوسيلة التي يرضاها
ما دام اقناعهم للخير والفلاح ، وما دامت قيادتهم لا تتأثر
بغير هذه الوسيلة ، ولو اننى وجدت في كلمات القائد
الأعظم مسحة من هذه الألوان الخطابية لما أصغرتة من
أجلها ولا اتهمته في اخلاصه وصدق دعوته ، ولكننى أكبره
لا محالة اذا خلا كلامه منها وبلغ مع هذا غايته وغاية قوم
على أقوم منهاج

تحدث القائد الأعظم بهذه الاقوال أو كتبها خلال أربعين
سنة من عنفوان صباه الى أن علت به السن وجاوز السبعين ،
فلم تختلف في واحدة منها تلك المزية التي تكبره وترفعه
للناس مثلا بين زعماء السياسة وقادة الشعوب ٠٠ وهى
مزية الصدق الصريح ، بل مزية الصدق البسيط الواضح
الذى لا يشوبه مرة واحدة بتزويق أو تنميق

كل ما قرأته له من تلك البيانات التي جاوزت المائتين
صالح لان يقال أمام هيئة علمية محققة ، أو أمام هيئة
قضائية بعد حلف اليمين

وعد في حدود الامكان والنفاد ، وصدق تتساوى فيه
الروية والارتجال ، وخطاب للجمهير يصارحهم فيه بعيوبهم

أحيانا ولا يتملقهم حيننا واحدا بقول لا يقوله بينه وبين
نفسه على انفراد

ان هذا الرجل عجيب .. ان هذا الرجل عظيم ..
وأدعى الى العجب منه والايمان بعظمته انه نشأ على
مذهب الاسماعيلية المعتدلين ، ومذهبهم يبيح للمعلم أن
يصطنع التقية ، وأن يخاطب الناس على درجات فى الفهم
والاقتناع ، ولكن الرجل لم يتقيد بهذا المذهب فى هذه
الحصلة ولا فى غيرها من الحُصَال ، ولم يفارق سجيته التى
فطر ودرج عليها ومات عليها، شبابه فيها وشيخوخته سواء

موقفه من الطلبة والعمال

كان الزعماء جميعا يخطبون ود الطلبة الذين يتعلمون فى
البلاد الانجليزية ، ويعلمون انهم عماد المستقبل ، وأن من
يكسبهم فى حاضرهم يكسب الجيل المقبل فى السياسة وفى
القيادة الشعبية ، ولكنه كان يؤمن بأن الطالب يحق له
الاهتمام بأمراض قومه، ولكنه لا يحق له أن يتصدى لمعالجتها،
ولما دعى لمخاطبتهم فى سنة ١٩١٣ قال لهم وكان يومئذ فى
مقتبل حياته السياسية :

« ان موقف الطلبة فى هذا البلد فرد بغير نظير ، لانهم
نموذج مختار من صفوة أبناء الأمة الهندية وخيرة من
تستطيع اخراجهم وتربيتهم ، انهم هنا الأمانة على سمعة
بلادهم . ويسوءنى أن أقول انهم فى الوقت الحاضر من حيث
العلاقة بالمجتمع البريطانى لا يظفرون بسمعة حسنة ولا
بسيرة طيبة ، فهم بدلا من سلوك مسلك الطلبة فى التعلم

والانتفاع بأفضل ما فى الحضارة البريطانية التى لم يكسبها
القوم الا بعد رياضة العصور المتعاقبة - يفتلون هذا الواجب
ويقصرون حياتهم العامة على التراشق بالعبارات النابية
فى خصومات السياسة . دعونى اذكركم انكم لم تدركوا
بعد مرتبة الكفاية لتناول المسائل السياسية التى تتمثل
فى بلادكم ، وما من أحد يقدر غيرتكم فوق قدرى لها ويفهم
الاسباب التى حملتكم على ما تصنعون خيرا مما أفهمها ،
ولكن الوقت قد حان لاعادة النظر فى موقفكم بعين الجد
والسداد وتسالوننى ما هو المطلب الذى يراد من
جماعتنا ، فاعلموا اننا فى دور الاستعداد لتنشئة الاحوال
التى تمتد بها نظرتنا القومية الى نطاق أوسع وأكمل ، واعلموا
ان الرجال الذين يساهمون اليوم بالنصيب الأوفى فى
السياسة الهندية هم أناس تعلموا فى انجلترا وعادوا الى
بلادنا لخدمتها ، فاختلطوا بالبيئات الانجليزية واتخذوا
الاصحاب منها ، وليكن واجبكم الأول قبل هذا أن تلتقوا
بأبناء وطنكم وتعرفوهم حق معرفتهم ، فان مقامكم بانجلترا
هو الفرصة التى تجمعكم بغيركم من أبناء الهند الذين
ينتمون الى جميع أقطارها ،

وخاطب الطلاب من كلية عليجرة الهندية وقد مضى
أربعون سنة على ذلك الخطاب فى انجلترا فقال :

« اجتهدوا أولا فى رياضة أنفسكم على الشعور بالتبعة
والواجب ، وليكن همكم بناء أخلاقكم فهو خير من الشهادات
والاجازات . ان العناية فى تحصيل الشهادات والاجازات بغير
خلق ضائع ، وعليكم أن تربوا فى أنفسكم روح الكرامة

والاستقامة والقيام بما هو مفروض عليكم ، وما نحن دون
غيرنا من الامم مقدار ذرة ، وانما كانت آفتنا من اهمالنا
لهذه الصفات ونحن قادرون عليها . وصدقوني عن يقين :
ان الباكستان لكم خالصة يوم تتمكن هذه الصفات منكم ،
وكان القائد الاعظم يزور كلكتا في شهر مارس (سنة
١٩٤٦) داعيا للعصبة الاسلامية فوجه اليه وفد من العمال
بعض الاعتراضات على تكوين العصبة وقال له احدهم :

« يقول الناس ان العصبة الاسلامية طائفة من الاغنياء
لا محل بينها للفقراء »

فاجابه القائد الاعظم قائلا في صراحته التي لا التواء فيها:
« من هم اولئك القائمون بالعصبة ؟ انهم ليسوا اغنياء .
ودستور العصبة ، بعد ، دستور ديمقراطي ، فان كان في
العصبة اغنياء طماعون فهم هناك لضعفكم انتم وتهاونكم ،
لانكم لا تختبرون قائدكم قبل اتباعه ، وما للزعماء من قوة
غير التي يستمدونها من الشعب ومن الفقراء ، فعليكم قبل
أن تسلموهم زمام القوة ان تختبروهم فمن وجدتموه غير
اهل للأمانة فانبدوه »

قال احد العمال : « ان بعض الرؤساء لا يهتمون اهتماما
فعالا بشئون الشعب وشكاياته » . فعاد القائد الاعظم
يقول : « اذن عليكم أن تخرجوهم . فانما انتم الذين تصنعون
الزعماء ، فان لم يعرفوا الأمانة فلا تقلدوهم الزعامة ،
وعاملوني أنا هذه المعاملة ، واتخذوا من مستر تشرشل مثلا
تعتبرون به ، فانه على كونه أنجح قادة الحرب قد نبذته أمته »

شجاعته في معارضة الجماهير

واتفق مرة ان هيئة المؤتمر وهيئة العصبة الاسلاميه
معا اجمعتا على سياسة واحدة في مسألة الخلافة ، ولم يكن
جناح على رأيهم في الحطة التي اجمعوا عليها ، فوقف وحده
يعارض المؤتمر والعصبة ومن ورائهما الجموع الثائرة . . .
وكان في الاجتماع نحو خمسة عشر الفا يتلهبون حماسا
ويصفقون للمقترحات المعروضة عليهم تصفيق المأخوذین
بنشوة عارمة لا يقف في طريقها معترض يبالي بشهرته بل
بحياته . الا هذا الرجل الفذ العجيب ، فانه لم يوافق ولم
يسكت ، ووقف وحده ينقد آراء الخطباء وحماسة المجتمعين .
وكان في الهند يومئذ مستر ودجوود مندوب حزب العمال ،
فكتب يقول : « ان الهند ماضية في طريق الحرية ، لان فيها
رجلا يستطيع ان يثبت على رأيه في وجه الجموع المخالفة ! »
اما مستر جنتر مؤلف الكتب المشهورة عن داخل أوروبا
وآسيا وأمريكا فقد قال : « ان الرجل حفر قبره بيديه ،
وتوأتية هذه الشجاعة اذ يخاطب الغوغاء وهم في غليان
التعصب كما توأتية اذ يخاطب جمهورا من أعضاء المؤتمر
والعصبة ، فمن مواقفه التي يندر جدا ان يقدم عليها احد
من الساسة موقفه بين المسلمين والسيخيين في خلافهم على
موقع تنازعه ، فقال المسلمون انه مسجد قديم ، وقال
السيخيون انه ملك لاجدادهم لا ينزلون عنه ، وهاجت الفتنة
هياجها وتسائل الناس كيف يواجه الرجل هذه الثورة
الجائحة ، فاذا به يذهب الى مكان الاجتماع هادئا ساكنا
كانه يذهب الى مجلس سمر ، وتطلع اليه المجتمعون فلم

يتكلم ولبت هنيهة يدخن سيجارته حتى فرغ من تدخينها،
وبدلا من أن يعديه هياج الجموع أعدى الجموع هـدوؤه
وسكينته فسكنت جانشتهم ، وظلوا يترقبون كيف يبدأ
الكلام وماذا عسى أن يقول ، فلما تكلم كان كلامه آخر شيء
توقعوه ، لأنه لم يتملقهم ولم يجاملهم ، بل أخذ في تبكيتهم
لأنهم يتعرضون لمسألة دينية بوسائل غير دينية وليست
مما ترضاه عقيدة المسلمين ولا عقيدة السيخيين، ومن عجيب
قوته أنه أخجلهم ولم يثرهم بذلك التبكيت، ثم مضى يعرض
للمسألة المختلف عليها ويبين لهم أنها من المسائل التي
تعرض على القضاء ليفصل فيها بالحجة والبينة ، لأنها نزاع
على عقار . فان ثبت أنه مسجد قديم فالمسلمون أولى به ،
وان لم يثبت فشأنه شأن كل بقعة يملكها غير المسلمين

وقد أبت صراحته في كل موقف أن يجامل الهيجة الغالبة
في وقت من الاوقات وان هانت فيه ظواهر المجاملة . فماذا
عليه مثلا لو لبس كساء الزى الشائع الذي اصطلح عليه
جماعة المغزل من البراهمة والمسلمين اقتداء بالمهاتما المبشر
بذلك الكساء ؟ لقد كان في اجتماع ناجبور الذي سبقت
الإشارة إليه نحو خمسة عشر ألفا يلبسون «الحادي» ولكنه
هو وحده حضر الاجتماع بملابسه المعتادة لأنه لم يكن يؤمن
بحركة المغزل ، فلا يبيع له ضميره أن يلبس « الحادي »
ساعة أو سويعات وهو لا يرى في حركة المغزل حلا للقضية
الهندية

والذين خبروا الرجل من قريب يشهدون له بهذه
الصراحة المستقيمة التي تشهد بها أقواله وأفعاله ، ومنهم

انجليز وبرهميون ، ومنهم مسلمون يخاصمونه ولا يقرون سياسته ، ومنهم من اتهم غاندى فى صراحته ولم يخطر له قط أن يتهم صراحة جناح . قال بيفرلى نيكولاس Beverly Nicholas : « ان الفرق بين جناح والسياسى الهندى هو الفرق بين الجراح والساحر » . وقال الديوان شمان لال : « انه أحد الرجال القلائل الذى لا يخدم مآربا شخصيا ولا يرمى الى غاية نفعية . ان نزاعته فوق الشبهات »

ومع هذه الصراحة يشهدون له بقدرته على الاقناع ، وتأتى هذه الشهادة ممن لا يشهدون لشرقى بالرجحان على أساطين الغربيين فى أمر من الأمور . قال مونتاجو وزير الهند فى الحكومة البريطانية : « ان شلمسفورد حاول أن يناقشه فوق فى كتافه ، وانه لرجل بارع جدا ، ومن الغبن الصارخ ان رجلا مثله لا تتاح له الفرصة لتدبير أمور بلاده » قرأت ما قرأت للرجل ، وقرأت ما قرأت عنه ، فلم أجد ظلا واحدا يخالط ذلك النهار الواضح من صدقه واستقامته فى تعبيره : سياسى لا يبطن غير ما يظهر ، ولا يعنى القليل وهو يجهر بطلب الكثير ، ولا يدخر للصفقة الاخيرة مساومة لم يكشفها من الصفقة الاولى ، وهو يقود أتباعه بغير خداع ولا تهويل ولا تهوين ولا تنويم ، فكيف أفلح فى مسعاه وقد أفلح فيه حقا غاية ما يستطاع من الفلاح ؟

لابد من سر فى الرجل ، أو لابد من سر فى القضية التى تجرد لها ، ولعل السر فى الرجل والقضية معا وهو الذى قدرناه ولمسنا شواهدة ولم نزل نلمسها كلما اطلعنا على جديد فى سيرة جناح وسيرة الباكستان ، وفى الصفحات التالية بيان هذا السر المبين

انفصال الباكستان
ضرورة لا محيد عنها

ضرورة لا محيد عنها

كان انفصال باكستان ضرورة لا محيد عنها . ضرورة حاول ساسة الهند جميعا أن يتجنبوها فلم يفلحوا ، وأن يتجاهلوها فلم يستطيعوا ، لأنها غير قابلة للتجنب أو التجاهل ، فهي الحل الوحيد الذي تستقر عليه مشكلات الهند كما تستقر المادة في موضعها بحكم قوانينها ، فهي ختام كل محاولة

وقد كانت المحاولات كثيرة متعددة ، وكان المشتركون فيها كثيرين متعددين ، منهم انجليز ومنهم هنود برهميون أو بوذيون أو جينيون ، ومنهم هنود مسلمون على مذهب السنة أو على مذهب الشيعة ، وقد يكون من حسن الشهادة للزعماء المسلمين أنهم جميعا بدأوا حياتهم السياسية وهم من أنصار الوحدة الهندية التي تشمل أقوام الهند كافة ، وانهم جميعا جربوا كل محاولة قبل المحاولة الاخيرة، ولكنهم كما أسلفنا كانوا يتجاهلون حقيقة لا تقبل التجاهل، فعادوا الى الاعتراف بها مكرهين ، ثم آمنوا بها ايمانا لا يتزعزع . لان التجارب التي استغرقت كل تجربة معقولة قد خلصتها من الشكوك وختمت بالحسم الفاصل كل محاولة ، فلا سبيل الى محاولة جديدة

وكان ايمان الجماهير في هذه القضية سابقا لتفكير
الزعماء

كان ايمان الجماهير بوجود الانفصال شيئا أقوى من
الرأى وأقوى من الرغبة وأقوى من الهوى . كان كأنه القابلية
المادية التى تتمثل فى خصائص الاجسام : جسم لا يقبل
الذوبان فى جسم آخر ، فلا موضع هنا للآراء ولا للرغبات
ولا للاهواء

لهذا تساوى منطق جناح وشعور أتباعه ، ولهذا تلاقى
تفكيره العملى وغيرتهم القلبية ، فلم تكن به حاجة الى اثاره
شعور أو تلبيس حقيقة بطلاء مقبول ، لان الكلمة الصريحة
المستقيمة هنا كافية بل فوق الكافية ، اذ هى الكلمة اللازمة
دون غيرها . فكل ما عداها ضياع واسراف وفضول ، ومن
عجائب القصد فى أطوار الطبيعة أن يدخر جناح للنهوض
بأعباء هذه القضية ، لانها قضية لا تتطلب زعامة تنفق
جهودها فى التزويق والتأثير ، بل تتطلب الزعامة التى
تجسمت قوتها كاملة فى الصراحة والاستقامة الى القصد ،
وتجمعت وسائلها كلها فى التنظيم ومضاء العزيمة وصحة
التفكير، فكان تفكيره السليم وغيره أتباعه قوتين متشابهتين
فى العمل والاتجاه

كان معظم المتتبعين لمشكلات الهند يتخيلون مسألة
الباكستان كأنها مسألة قلة تنشق عن الكثرة فى وطنها ،
وكانوا يحكمون عليها كما تخيلوها فيخطئون غاية الخطأ ،
ولا يحسنون الاهتداء الى رأى سديد فى تلك المشكلات
وتصحيح هذا الخطأ هو الخطوة الأولى التى لا بد منها قبل

الاستقامة على الطريق السوى ، فاذا صحح هذا الخطأ أول الأمر فكل خطوة بعده واضحة لمن يريد أن يبصر بعينيه لم تكن الهند قط وطنا واحدا بأى معنى من معانى الوطنية ، ولم يكن لها قط اسم واحد قبل دخولها فى حوزة الدولة البريطانية ، وانما أطلق عليها هذا الاسم لانه أيسر من اختراع اسم جديد ، وما كانت الهند قبل ذلك تطلق على غير نهر السند ثم واديه ، وهو جزء من القارة الهندية كان يجهله كثير من سكانها المتفرقين فى أرجائها الفساح

بل لم تكن قط وحدة جغرافية فى زمن من الأزمان ، اذ كانت المواصلات فيها منقطعة أو متعذرة ، فلم تكن أنهارها موصلة الى جميع أجزائها، ولم تكن وسائل النقل فيها تقوى على وحول الامطار فى الشتاء ، ولم تكن الحاجة اليها ماسة فى غير الشتاء

وليس سكانها من جنس واحد ولا هم يتكلمون لغة واحدة ، فمنهم الآريون والسود ، ومنهم قبائل من المستوحشين يبلغون نيفا وعشرين مليوناً ، ويرجع علماء الاجناس انهم من أصول القبائل الاسترالية ، وقد أحصى السير جريرسون Grierson اللغات واللهجات التى يتكلمها هؤلاء السكان الهنديون فبلغت نحو مائتين وخمس وعشرين لغة ولهجة (١) أكثرها لا يكتب بحروف

والمشهور ان الطبقات فى الهند أربع تشمل طائفة المنبوذين وهم نحو ستين مليوناً يحرمون على أنفسهم الاتصال

(١) كتاب الهند والباكستان والغرب تأليف برسفال سبير Percival Spear

بهم . ولكن هذه الطوائف الاربع هي الطوائف الكبرى التي تتفرع على كل منها عشرات الطوائف تنطوي كل منها على نفسها في مسائل العبادة والزواج والمعيشة ، وتتعصب لتقاليدها تعصبا لا هوادة فيه ، والراجع من كلمة الطائفة في الهند - وهي فارونا Varuna - انها فاصل بين اجناس تختلف بالدم والسلالة ، لان الكلمة تعنى اللون ، فهي تفصل بين اقوام متعددة الالوان ، ومع هذا سرى نظام الانقسام الطائفي حتى شملت العزلة في كثير من الاحوال أبناء الحرفة الواحدة وأبناء الموقع الواحد ، وبلغ من تقديس هذه الفوارق ان اشاعة عزم الانجليز على الغاء الحواجز بين الطبقات كانت من اسباب العصيان المشهور في سنة ١٨٥٧

التعصب الديني

والتعصب بين المختلفين في العقيدة من اهل الهند اصعب انواع التعصب المعروف في كل اختلاف . لانه لا يقوم على تباعد الآراء بل على تباعد العادات الاجتماعية التي تحس فوارقها في كل يوم بل في كل ساعة ، ومن أعسر الأمور تعديلها لانها تتعلق بالحياة الابدية لا بحياة الفرد من مولده الى وفاته ، فمن ولد من طبقة المنبوذين مثلا فهو قضاء أبدى يسبق مولده ويلاحقه بعد وفاته ، فكل تعديل في نحلة من النحل أو في شعائرها ومراسمها فهو هروب من المشيئة الابدية التي يتعلق بها خلاص الارواح وقد تذر البرهميون أشد التذمر حين أمرت الحكومة الهندية بالغاء « السوتى » وهو احراق النساء مع أزواجهن

المتوفين ، فلما صدر الأمر بالغاءه في سنة ١٨٢٩ هبت عاصفة من السخط على الحكومة وأمطرها البرهميون شكايات يلتمسون فيها الغاء ذلك القرار ، ويقاس على التشبث بهذه السنة مبلغ التشبث بغيرها مما هو أقل منها نكرا ومجافاة للشعور والعاطفة الانسانية . فكل سنة ، بل كل عادة ، فهي قضاء مبرم لا يجوز عليه التبديل أو التخفيف

وقد وهم الكثيرون أن تحريم أكل الحيوان سنة عاطفية لما اليها البرهميون رحمة بالحيوان ، ولكن الواقع انها سنة تقليدية نشأت من الايمان بتناسخ الارواح وان الاحياء الدنيا قد تحل فيها ارواح الناس على سبيل العقاب ، فاكلها قطع لسلسلة التناسخ ودورة الارواح في الاجساد من الازال الى الآباد

فقد يكون الهندي مسامحا برايه وفكره ، وقد تكون عقيدته في الله عقيدة مسالمة لاصحابه ومعاشريه ، ولكن المعضلة الكبرى هي هذه العادات التي تدور عليها معيشة كل يوم وترتبط بها المشيئة الأبدية فلا تقبل المسالمة والمسامحة ، وتلك هي المعضلة التي يعانيتها المخالفون للعقيدة الهندية حين تكون السيطرة عليهم لاصحاب تلك العقيدة ، وحين يكون المرجع كله اليهم في سلطان الدولة ، وهذه المعضلة هي خلاصة الضرورة التي جعلت من الحتم الحاتم أن تنفصل الباكستان ، أو كما قال القائد الاعظم في تلخيصها : « نحن نأكل البقرة وهم يعبدونها ، فكيف نتفق على نظام واحد » لهذا ولغيره من الاعتبارات الاقتصادية والجغرافية

والعاطفية أصبحت العقيدة قوام الأمة في الهند ، وحدث في الهند ما لم يحدث في غيرها من قبل وهو تحول الصلة الدينية الى صلة قومية، فقبل في السيخيين مثلا انهم عقيدة أصبحت أمة ، لانهم أناس من سلالات الهند لا فاصل بينهم وبين سائر أبنائها بغير العقيدة . هذا والنحلة السيخية قد نشأت في القرن الخامس عشر للميلاد ، فقس على ذلك نشأة الاسلام أو القومية الاسلامية بمقومات كثيرة غير العقيدة ، وهي الثقافة والدولة والآداب الاجتماعية

الاسلام والاستعمار

وكانما كانت هذه العوامل القوية بحاجة الى مزيد يوسع فوارق الانفصال فوق اتساعها فجاءت سياسة الاستعمار بجملة من هذه الفوارق مقصودة أو غير مقصودة ، اذ كان الاستعمار الانجليزي قد تسلل الى الهند وليس فيها دولة تقاومه أقوى من الدولة الاسلامية ، فقرر في اخلاص المستعمرين ان الخطر على سيظرتهم انما يتوقع من هذه الناحية قبل غيرها ، وعملوا على اضعاف شوكة المسلمين واقصائهم من الوظائف كبيرها وصغيرها ، وكان المسلمون في ابان دولتهم قانعين من الحياة العامة بالوظيفة الحكومية ، وذادهم عن الاشتغال بالصيرفة انهم يحرمون الربا ، وعن ملك الارض ان الارض لم تكن مملوكة لأحد ولكنها كانت متروكة للزراع وللجباة الذين يؤدون للحكومة حصتها من الضرائب ، وكان أكثر هؤلاء الجباة من البرهمنين المشتغلين ببيع الغلال وتصريفها ، فلما أصدر الانجليز قانونا لتسوية مسائل الارض الزراعية جعلوا هؤلاء الجباة ملاكا وجعلوا

الزراع أجراء فى أرضهم ، واعتمدوا على هذا النظام زمنا
لتحصيل الضرائب ومحاسبة الجباة عليها ، فاجتمع الحرمان
من الوظائف والحرمان من الارض على اقامة العزلة بين
المسلمين وغيرهم فى الحياة الاجتماعية

وقد كتب لورد « النبرو » Ellenborough مصرحا بهذا
العداء فقال : « ليس فى وسعى أن أغمض عينى عن اليقين
بأن هذا العنصر الاسلامى عدو أصيل العداوة لنا وان
سياستنا الحقة ينبغى أن تتجه الى تقريب الهنديين Hindus »
وما لم يكن من عوامل التفرقة السياسية صادرا من هذا
الشعور فهو مقصود مدبر لتعزيز السيادة بالتفرقة بين
المحكومين : Divide et impera وهى خطة جهر بها اللورد
الفنستون Elphinstone فى سنة ١٨٥٨ وسبقه الى اعلانها فى
المجلة الاسيوية سنة ١٨٢١ كاتب قال بصريح العبارة :
« فرق تسد : هو الشعار الذى ينبغى أن نلتزمه فى ادارتنا
الهندية » وتكررت هذه « النصيحة » فى أقوال الرؤساء
العسكريين ورؤساء الدواوين



هذه العوامل جميعا ، ما كان منها طبيعيا وما كان منها
مصطنعا بتدبير السياسة ، قد جعلت المسلمين أمة مستقلة
تفصلها من الهنديين كل معالم القومية ، وأصبحت الموازنة
بين أسباب الانفصال وأسباب الاختلاط عند خروج الانجليز
من الهند « عملية حسابية » لا لبس فيها ، فكل صعوبة
جغرافية أو ادارية تحول دون الانفصال فهى أسهل تذليلا

وتمهيدا من صعوبات البقاء في ظل حكومة واحدة ، وقد يطول شرح الاسباب اذا توخينا التفصيل والاستقصاء ، ولكن القارىء خليق أن يستغنى عنها جميعا بعرض موجز لسيرة الزعيمين الهنديين اللذين تعاقبا الزعامة منذ جيلين وهما طيلاق وغاندى . فاما طيلاق فكانت دعوته الصريحة تخليص الهند من الواغليين الانجليز والمسلمين على السواء ، وكان برنامجهم يقوم على الغناء اللغة الاردية فى الدواوين ومطالبة الحكومة باباحة الزفات الموسيقية أمام المساجد ، وكانت محرمة بنص القانون

وأما غاندى فقد كان جزاؤه القتل لتسامحه فى معاملة المسلمين ، وكان قاتله من جماعة كثيرة الاشياء ترى أن الحل الأمثل لمشكلة الاجناس فى الهند هو استئصال تلك الاجناس

لا جرم كان منطق القائد الاعظم الواضح الرصين مرادفا فى معناه ووجهته لشعور الجماهير ، فكانت صراحته فى دعوته قوة لها ولم تكن عقبة يحتاج الى تذليلها وتخطيها على سنة الاكثرين من زعماء الجماهير ، وصح القول ان شعور الجماهير فى هذه المعضلة كان أكثر من شعور وأكثر من حكمة عملية ، لانه كان كالقابلية المطبوعة التى تستقر فى خصائص الاجسام

ومن عاداتنا فى الزمن الحديث أن نستريب بدفعة الجماهير وبرامج السياسة ، وأن نعتبرها على أحسن ما تكون أمورا موقوتة وأحوالا حائلة . الا أن هذا الشعور الذى رددته برامج السياسة فى الباكستان حقيقة علمية يقررها أساتذة

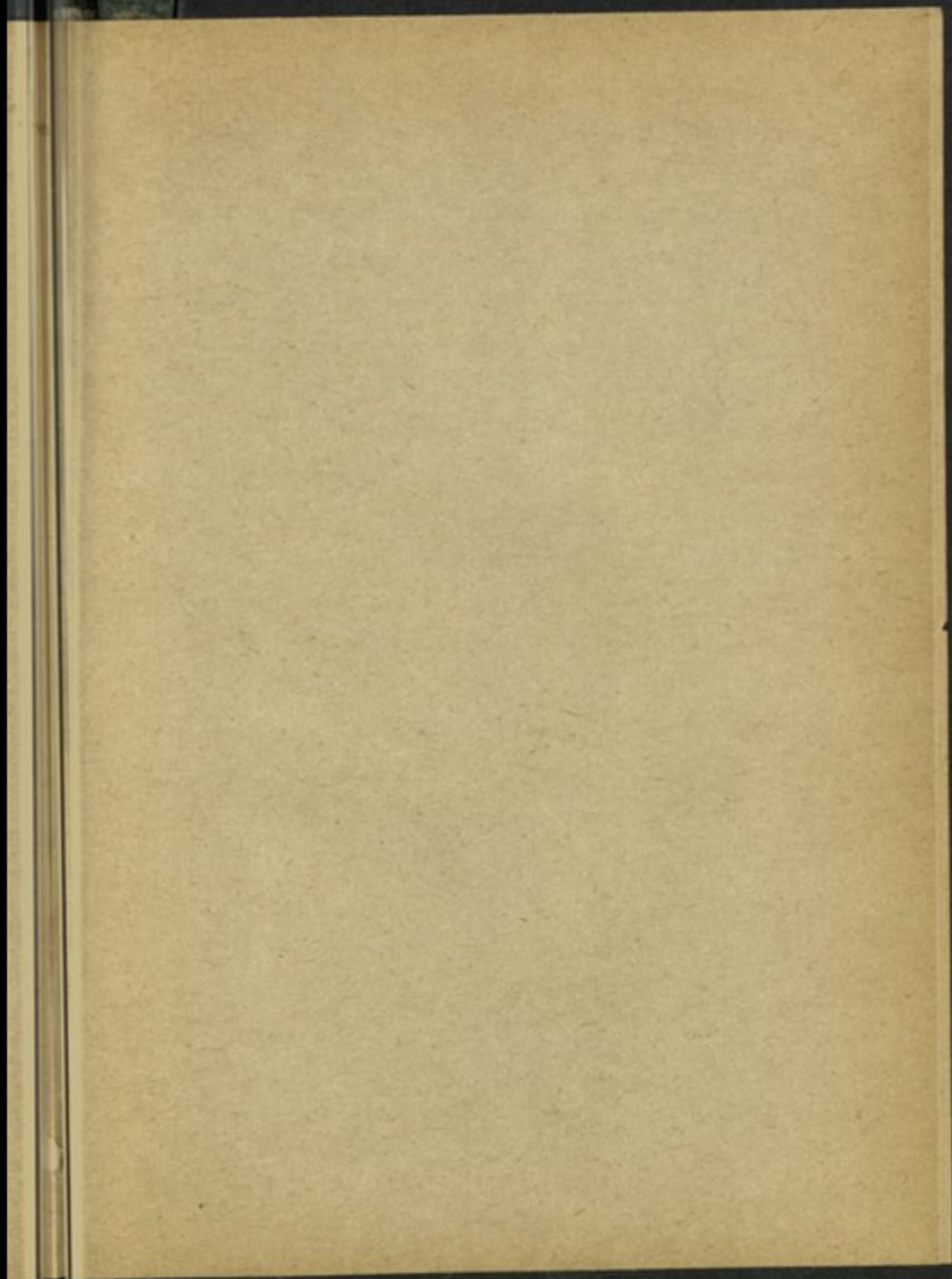
التاريخ من غير المسلمين ، وفي أحدث الكتب عن تطور الهند كتاب للاستاذ « لونيا » Luniya مدرس التاريخ وعلم السياسة بكلية هولكار يبسط فيه علاقة المسلمين بغيرهم في الهند فيقرر في غير موضع انهم أمة مستقلة لا اختلاط بينها وبين الأمم البرهمية ، ومنها قوله في فصل الهند والاسلام : « ان المسلمين اول قوم أغاروا على الهند ولم تستوعبهم طيات القارة الهندية المرنة التي لا تنى تمتد وتنطوى على المغيرين ، وقد أغار قبلهم كثيرون كالأغريق والسيثيين والمغول والمجوس وغيرهم وانطوا في الغمار بعد أجيال قليلة انطوا تماما بأسمائهم ولغاتهم وعاداتهم وعقائدهم وأزيائهم وآرائهم ، وفنيت جموعهم في الواقع في المجتمعات الهندية ، الا المسلمين . فانهم لم يزالوا في الهند طائفة منفصلة ، ورفضت نياتهم المتشددة في الوجدانية كل هوادة في قبول الشرك والأرباب المتعددة ، ومن ثم عاش المسلمون والبرهميون في أرض واحدة دون أن يمتزجوا ولم تفلح محاولة من المحاولات في وضع القنطرة على الفجوة ، وما برح المسلمون خلال القرون التالية يولون وجوههم شطر الكعبة في مكة وينفردون بشريعتهم ونظام ادارتهم ولغتهم وأدبهم وأضرحتهم وأوليائهم »

ومع شهادة المؤلف للمسلمين بالفضل في تعليم البرهمنيين مبادئ المساواة قال : « ان إحدى النتائج التي نجمت من حكم المسلمين في الهند ان المجتمع قد انقسم في عهدهم قسمة رأسية وكان قبل القرن الثالث عشر ينقسم ولكن قسمة غير رأسية ، ولم تستطع البوذية ولا الجينية أن تحدثا

مثل هذا الانقسام لانهما ما عتمتا أن اندمجتا في المجموع
بسهولة وسرعة ، على حين أن الاسلام قد شق المجتمع من
الأسفل الى الأعلى شطرين متقابلين : براهمة ومسلمين .
فنشأ في أرض واحدة مجتمعان متوازيان متغايران في جميع
طبقاتهما قل أن تصلي بينهما علاقة في المعيشة أو معاشرة ،
واشتدت محافظة البرهمنين أمام غيرة الاسلام في نشر
دعوتهم الدينية واندفعوا مع خوفهم وحرصهم على حماية
مجتمعهم الى المبالغة في قيود الطبقات والطوائف وما اليها
من القيود الاجتماعية ،

ومن العسير أن يقال عن خطة تملئها وقائع التاريخ
وبدائه الشعوب غير انها ضرورة لا محيد عنها ولا طاقة
بالرجوع فيها ، وان أريد الرجوع





الرواد والآباء

أستاذ الزعماء

من أصدق الأقوال في تلخيص قضية باكستان كلمة
الزعيم الهندي المعتدل جوكهيل اذ يقول لاُبناء قومه تيسيرا
لفهم مطالب المسلمين : « انكم لو كنتم في موضعهم لطلبتم
مثل مطالبهم وشعرتم بالحاجة الى ضمان كالضمان الذي
يحتاجون اليه »

وجوكهيل هذا هو قدوة الزعماء الهنديين في السماحة
ورحابة الصدر ، وهو أستاذ جناح السياسي في صباه
وقدوته في مسألة الطوائف والاحزاب ، وكان جناح يقول
انه يطمح الى شيء واحد وهو أن يكون جوكهيل من المسلمين
قال جوكهيل كلمته تلك وقد نجمت دعوة الطوائف
وتشعب الخلاف عليها في الربع الاول من القرن العشرين ،
وكانت هذه الحقيقة واضحة أمام عينيه وهو ينظر الى مفترق
الطريق ، ولكنها - قبل أن يفترق الطريقان - لم تكن واضحة
هذا الوضوح أمام زعماء المسلمين بل أمام أشدهم مغالاة
في طلب الانفصال ، ولا استثناء في ذلك لزعيم هؤلاء
الزعماء وأستاذهم وموحي الفكرة التي نشأ منها المؤتمر
الهندي والعصبة الاسلامية على السواء ، وهو « السيد
أحمد خان »

كان السيد أحمد خان هو الرائد الاول للباكستان ،



فدراونی

السید احمد خان

۲ - محمد علی جناح

وتلاه أعوانه وتلاميذه فبدأوا كما بدأ ثم انتهوا كما انتهى :
بدأوا يعملون يدا واحدة مع الهندين على امكان الوحدة ،
ثم حاول كل منهم محاولته وانتهى منها بعقله وتديبره الى
حيث انتهت بداهة الجماهير ، فتوافرت للحركة كل قوتها
من تلاقى الرؤوس والقلوب على عقيدة قد تمحصت من جميع
جوانبها، وانتفى منها كل شك يخالغ نفوس القادة أو الأتباع
وكان السيد أحمد خان مثالا عاليا للرجل العظيم الذي
يثبت للناس من حين الى حين أن الغيرة الدينية البالغة
والشعور الانساني الاكمل لا يتناقضان بل يمتزجان
ويتعاونان ، فلما وقعت الفتنة التي اشتهرت بفتنة العصيان
Mutiny أنقذ من الموت كثيرا من الانجليز كما أنقذ كثيرا
من الوطنيين ، ولم تحتمل نفسه الكريمة أن يرى انسانا
أعزل يفتك به مطارذوه كأنه فريسة ينفرد بها وحوش ضراة
وحفظ له الذين أنقذهم هذا الجميل، ومنهم رجل انجليزى
اشتهر بين القوم لانه يسمى باسم الشاعر الكبير وليام
شكسبير ، بلغ من وفائه له انه كان يلازمه حيثما استطاع،
وملازمته هذه هي التي تجعل لكلمته معناها فى هذا
السياق . فانه سمعه زمنا طويلا يتكلم عن تقدم الهند
ونهضة الهند وحقوق الهند ، فلما سمعه لأول مرة يذكر
تقدم المسلمين ويفردهم بالقول دهش وبدت عليه الدهشة
ولم يكتمه سبب دهشته فقال له : « هذه أول مرة أسمعك
فيها تتكلم عن المسلمين وخدمهم ، وكنت على الدوام تهتم
بمصالح أبناء وطنك أجمعين » فأجابه الرجل العظيم الذى
اشتهر بصراحته كما اشتهر بحكمته : « اننى اليوم مؤمن

بأن القومين - كما وردت الكلمة في العبارة الاردية - لن يخلصا النية في أمر واحد ، وليس بينهما اليوم عداة مكشوف ، ولكن هذا العداة سينكشف في المستقبل من جراء من يسمونهم بالطائفة المتعلمة . ومن يعيش ير ،

قال شكسبير : « انى ليحزننى أن تصدق هذه النبوءة » ، فقال السيد أحمد : « واننى أيضا لحزين جد الحزن من أجل هذا ، ولكنى منه على يقين » . ولم تمض فترة وجيزة حتى تحقق كلاهما ان خلوص النيات فى قضية الوحدة مستحيل



كان السيد أحمد خان ماردا من مرده الاصلاح الافذاذ فى كل زمن وكل أمة ، وكانت شخصيته من الرحابة والقوة بحيث تحتمل الكثير من النقائض فى مقاييس الاوساط ، ولم يكن وسطا فى مقياس من تلك المقاييس

كان كما قدمنا غيورا شديد الغيرة على أبناء دينه ، ولكنها غيرة لم تكن تعجب شعوره الانسانى فى أوقات اللدد والشحناء ، كما يحدث أحيانا لأصحاب النفوس الصغار

وكان لفرط غيرته معدودا من المتعصبين فى رأى بعض خصومه ومعارضيه ، ولكنه كان فى رأى المتعصبين متهما بالالحاد والمروق ، وتعرض للقتل مرتين من جراء هذا الاتهام

وكان من سياسته أن يسالم الدولة الحاكمة حتى يرتقى بقومه الى الشاؤ الذى يمكنهم من ولاية الحكم عند تمام

الاستقلال ، ولكنه لم يفهم قط من المسألة انها ملق
وازدلاف ، بل كانت صراحتة تسلكه عند أناس من الحاكمين
فى عداد المهيجين ، وقد ترك حفلة الدربار غضبا واحتجاجا
على التمييز فى كراسى الجلوس بين الانجليز والوطنيين
وكان ينكر على الانجليز فى وجوههم تعاليهم على الرعية
الوطنية ويحذرهم عاقبة هذه الكبرياء، ولكنه كان يكتب الى
خاصته وهو فى بلاد الانجليز فيصارحهم فى ألم شديد
معترفا بأن الفارق بين المجتمع الانجليزى والمجتمع الهندى
كالفارق بين جماعة من الادميين وقطيع من العجاوات
ويعجب أصحابه لأمره بين النصح بالتقية السياسية
وبين مجاهرته بكل ما يعتقد مجاهرة لا تعرف التقية
والحيلة ولا ترهب المقاومة والمعارضة ، وكانت الدعوة
الوهابية فى ابانها حين نشط لدعوة الاصلاح ، وكان يأخذ
عليها اليبوسة والمبالغة فى التحرج ، فاذا قيل له : ما بالك
اذن تنحو نحوهم فى مجابهة الناس بما ينفرون منه وتصر
على مجابتهم وهم نافرون، قال : اذن أنا وهابى الوهابيين،
ان كانت الوهابية أن تجهر بما تدين

المراد الحق

والمراد الحق انما يبدو لنا فى جبروته ، بل فى ضخامة
جبروته ، اذا عرفنا انه عمل ونجح فى عمله وأدرك غاية
النجاح مع كثرة خصومه وكثرة الآراء التى تعارض رأيه
حتى بين أعوانه ومريديه
فاذا مضيت فى استقصاء علاقاته مع من حوله جزمت
انه لم يكن على وفاق مع أحد : لم يكن على وفاق مع الانجليز،

ولم يكن على وفاق مع البراهمة ، ولم يكن على وفاق مع المسلمين المحافظين ، ولم يكن على وفاق مع المسلمين المجددين ، ولكنه عمل ونجح في عمله غاية النجاح الذي يتسنى لأحد في موقفه ، وكان له أعوان من جميع هؤلاء المخالفين ، طائعين أو كارهين ، أو ليس فيهم كارهون على التحقيق بل مستسلمون يفوضون الأمر ويستسلمون

مرجع ذلك الى الثقة بصدقه واخلاصه ، ولكن لا الى هذه الثقة وحدها ، لان الصادق المخلص في غير قوة وعزم قد يفلح فلاح فرد ولا يتسنى له أن يفلح في انتزاع الملايين من جمودهم وتحويلهم عنوة من حال الى حال

مرجع ذلك الى القوة الماردة التي أسلست له قبل كل شيء زمام الثقة بنفسه ، فوثق به كل من تحدث اليه وعمل معه وأيقن بيقينه ، ونظر الرجل الى مهمته الضخمة فوزنها بميزان قوته واخلاصه ، فاذا هي مستطاعة مفهومة محدودة الاهداف ، واذا هو يمضي فيها مضي سالك الطريق المعبد الذلول ، ولو غيره نظر الى ذلك الطريق قبل المضي فيه لأحجم ولم يمض وأحجم وراه كل من رآه يقدم وينثنى بعد اقدام

خالف الجميع ولكنه جمعهم بغير خلاف على رأى واحد ، وهو رأيهم في صلاحه وقدرته وانه يعنى ما يقول ويعمل ما يعنيه ، وحسب الاعمال الكبار نجاحا أن يتفق العاملون لها على الايمان بقائدهم فيها ، وان اختلفوا بعد ذلك أى اختلاف وكانما كان هناك ارتباط بين تاريخ أسرة السيد أحمد خان وتاريخ الحركات الدينية ودعوات الاصلاح في الهند ،

فوصل أجداده الى دلهى مهاجرين من جزيرة العرب فى ابان
دعوة السلطان أكبر الذى حاول التوفيق بين الاديان فأخرج
منها جميعا ديننا موحدًا عرف يومئذ بدين أكبر، ومات بموت
صاحبه. وكان جد السيد فى زمرة المعارضين له بامامة شيخ
الطريقة النقشبندية وزملائه المعروفين باسم المجددين ،
وقد كان شاه غلام على رئيس المجددين صديقا للسيد متقى
والد السيد أحمد، ولم يكن للولى الموقر عقب. فكان يقول ان
أولاد متقى هم أولاده فى الله والروح ، وشغل نفسه بتعليم
الطفل كتابة اللغة العربية وتلقينه بعض الاحكام والفروض
وينمى السيد أحمد من ناحية أمه الى الخوجة فريدالدين
أعلم أهل زمانه بين المسلمين بالعلوم الرياضية والعقلية
وصاحب الكفاية الملحوظة التى جعلت « هاستنج » يندبه
لنظارة الكلية التى أنشأها لتعليم الوطنيين وجعلت ولاة
الأمر من انجليز وهندين يندبون له لمهام الوزارة والسفارة
فى ايران وبرما ، وقد سمع به أكبر شاه الثانى فعهد اليه
بوزارة القصر والخزانة ، وكان نظامه الدقيق فى الشؤون
المالية سببا للحنق عليه

ويعزى الى هذا العلامة أكبر الأثر فى تنشئته حفيده على
النشأة العقلية والحياة العصرية ، اذ كان أبوه منقطعا عن
الدنيا فى نسكه ومصاحبته للأولياء فكانت أمه تعيش أشهرها
متواليات فى بيت أبيها ومعها الصبى اليقظ المتنبه لكل ما
يراه حوله ويسمعه من أحاديث جده العظيم

وأول أثر من آثار هذه التربية أن الصبى لم ينهج نهج
أسرته من ناحية أبيه فى مقاطعة الوظائف أو مقاطعة كل

ما له علاقة بالحكومة ، فلما مات أبوه (١٨٣٦) وهو يناهز التاسعة عشرة قبل التوظف فى المحاكم وانتقل من الاعمال الكتابية الى أعمال القضاء فى بضع سنوات ، ونشبت الثورة وهو يتولى القضاء بمدينة بنجور فكان مسلكه مع أبناء قومه ومع الانجليز والبرهميين اول شهادة له عند الاقربين والغرباء برجاحة العقل وسماحة الطبع وعلو الهمة ، وأول مناسبة وضعت مشكلة الهند بجميع اجناسها واقوامها فى موضعها الصحيح

خرج الانجليز من تلك الفتنة الطاحنة حائرين فى تفسير بواعتها يعتقدون انهم مضللون ولا يعرفون كيف يهتدون ، وجعلتهم تلك الحيرة مستعدين للاصغاء الى كل نصيحة فلم يجدوا امامهم اقدر على النصيحة وأشجع على ابدائها من القاضى الجرىء الحبير ، فاما العقلاء منهم فقد لمسوا الصدق فى بيانه لبواعث الفتنة ووسائل علاجها ، واما المتهورون منهم فقد حسبوه من دعاة الهياج الذين يبذرون بين الامة الهندية بذور الفتنة من جديد ، وكانت خلاصة رايه ان الادارة الانجليزية هى المسئولة عن تدمير المحكومين لانها تحكمهم بغير مشاركة منهم فى الراى وعلى غير علم بما يساورهم من شعور ، وتغلبت الحكمة على التهور فاخذت الحكومة البريطانية بمشورته وعولت على تنحية الشركة التى كانت تنفرد بحكم البلاد الى ذلك الحين ، وأن تقيم الحكم على اساس الشورى والتدرج فى التمثيل النيابى واشراك المتعلمين من الوطنيين فى مجالس الحكام ، وهى مجالس شورية كادت أن تنحصر فى الانجليز ، ولم تكن لاعضائها

معرفة بمطالب القوم ولا اطلاع على شكواهم ومظالمهم ،
لترفعهم عن معايشة أبناء البلاد

الاستعمار يحارب المسلمين

وولدت على أعقاب الثورة فكرة المؤتمر الوطني فبرزت
مع الفكرة مشكلات التمثيل النيابي والحكومة الوطنية ،
وجعلت هذه المشكلات تتفاقم كلما تدرج الوطنيون في
مطالب الحكم الذاتي والاستقلال بالادارة والسياسة

برزت مشكلات الحكومة الوطنية وأولها حرمان المسلمين
من الحكم بتدبير السياسة البريطانية، أو من جراء هذه السياسة
حين يكون الحرمان نتيجة غير مقصودة لوقائع الاحوال بعد
دخول الهند في حوزة الدولة البريطانية

كان المسلمون حكاما فأخذ الانجليز منهم وظائف الحكومة
الكبرى ، وحذروهم في الوظائف الصغيرة فأكثروا فيها من
البراهمة والبوذيين وسائر الهنديين ، وأخلوها أو كادوا
يخلونها من المسلمين

وكان بين المسلمين اصحاب ضياع واسعة فانتزعها
المرابون وأتى قانون تسوية الارض على بقيتها وأسلمها الى
الجباة كما تقدم أو الى الزراع الصغار

وكانت الثقافة الفارسية هي ثقافة المسلمين ، فجاءت
المدارس الاوربية الحديثة ولم يقبل عليها المسلمون لانها
كانت على الاكثر في أيدي المبشرين والمتفرنجين

وقد وصف هذه الحالة انجليزى منصف هو الدكتور
وليام هنتر فقال عن أسر المسلمين من كبار الزراع : « لو
أراد سياسى أن يثير ضجة في مجلس النواب لما احتج الى

أكثر من سرد صادق لقصة هذه الأسر في البنغال «
ثم استطردها الى الوظائف فقال ان القيادة العليا التي كانت
من وظائف المسلمين قد نزعنا بطبيعة الحال من جميع الهنود :
« أما الوظائف الاخرى فكانت مشغولة هكذا في سنة ١٨٦٩
٠٠٠ أربع عشرة وظيفة من وظائف المهندسين بدرجاتها
الثلاث يشغلها الهنديون وليس معهم مسلم واحد ، وكان
بين المهندسين تحت التمرين أربعة هنديون وانجليزيون
وليس معهم مسلم واحد ، وكان بين وكلاء المهندسين أربعة
وعشرون هنديا ومسلم واحد ، وبين المشرفين مسلمان وثلاثة
وستون هنديا ، ولم يكن في ادارة الحسابات مسلم واحد
مع موظفيه الهنديين وعدتهم خمسون ، وكذلك لم يكن في
ديوان الرؤساء الثانويين مسلم واحد مع اثنين وعشرين من
الهنديين »

وهذه النسبة هي التي أحصاها الدكتور هنتر في البنغال
وهي نسبة نموذجية يقاس عليها في سائر الاقاليم ، ومنها
ما هو أسوأ حالا بالنسبة للموظفين وأصحاب الارض
المسلمين من ذلك الاقليم

نظر السيد أحمد خان الى هذه الحالة وعرف من حقائقها
ما لم يعرفه الدكتور هنتر ولا غيره من الانجليز ، لان صاحب
الدار كما يقال أدري بالذي فيها ، فأدرك عاقبة الحكم النيابي
الذي تتولاه كثرة الناخبين ، وعلم أنه حكم لا نصيب فيه
للنواب ولا للموظفين ولا للساسة من المسلمين

ومما زاد هذا الرأي اختمارا في نفسه قيام الدعوة القومية
الهندية على أساس محاربة الانجليز والمسلمين على السواء

بغير موارد ولا مجاملة ، فقد بدأت هذه الدعوة بعد حركة
الفتنة وظهر أنها تنتشر ولا تنحسر كما كان مرجوا في أول
عهدهما ، اذ كان أناس من المتفائلين يحسبون أنها رد فعل
للفتنة لا يلبث أن يستقر على قرار ثابت من الهوادة
والاعتدال ، وقد كان السيد أحمد خان أبعد منهم نظرا
وأعرف منهم بالحقائق فتشاهم من الحركة منذ نشأتها ،
وحققت الايام ظنه فلم يوجد في المؤتمر الوطني على عهد
الزعيم طيلاق أكبر المجاهرين بالعصبية الهندية أكثر من
سبعة عشر عضوا بين سبعمائة وخمسة وستين (سنة
١٩٠٥)

رجل عمل

وفضل الزعيم الكبير انه كان رجل عمل ولم يكن رجل
شكوى وانتقاد وكفى . فأول ما عمله لاصلاح هذه الحالة
السيئة انه أسس كلية «عليجرة» على النظام الحديث للتعليم
العالي والدراسات الجامعية ، وهذه الكلية هي التي أنجبت
قادة الأمة الاسلامية في الهند الا العدد القليل ممن حافظوا
على التعلم في المدارس الدينية ، ومن مصائب الدنيا ان هذا
العمل الجليل الذي عرفت آثاره اليوم كان مثار السخط
على الرجل بين الجامدين أنصار القديم ، فأشاعوا بين أتباعهم
ان السيد أحمد خان صنيعة للانجليز وانه زنديق يريد
تكفير شبان المسلمين ويبيع ضميره في سبيل الوظائف
والزلفى عند ولاة الأمور ، ولم يغنه مع هؤلاء الجهلاء ما هو
معلوم من رفضه كل منحة مالية تبرع بها الانجليز لمكافاته
على اثر الفتنة ، وقد كان يرفض تلك المنح مع ضيق الحال

به يومئذ حتى هم بالهجرة الى مصر كما قال في خطاب
وصف به عواقب الفتنة وسوء منقلب المسلمين بعدها

الا ان قلبه الكبير لم يستسلم قط للياس في أخرج
الاقوات ، فمضى في تأسيس الكلية ، وجعل شعاره في
الاصلاح الاجتماعى كلمة واحدة كررها ثلاث مرات وهى :
« علم • ثم علم • ثم علم » ودع كل شىء بعد ذلك لما يثمره
التعليم

أما فى ميدان السياسة فقد أعلن رأيه منذ سنة ١٨٨٣
عند الكلام على المجالس المحلية فقال فى خطاب صراح : « ان
نظام التمثيل بالانتخاب يعنى تمثيل مصالح الكثرة وآراءها ،
وهو خير الانظمة ولا ريب حيث يكون السكان من جنس
واحد وعقيدة واحدة • ولكنه ••• فى بلاد كالهند حيث
فواصل الدين على أشدها ، وحيث التعليم لم يجر على سواء
بين طوائف السكان ، يقترن بأضرار جمة لا تنحصر فى
الشؤون الاقتصادية ••• وما دامت فوارق الجنس والعقيدة
وحواجز الطبقة تعمل عملها الحطير فى حياة الهند الاجتماعية
السياسية ، وتسيطر على سكانها فى المسائل التى ترتبط
بالادارة والثروة ••• فليس من المستطاع الاعتماد على
النظام الانتخابى بآمن من العواقب ، لان الطائفة الكبرى
ستغمر الطائفة الصغرى ، ويذهب الجمهور الجاهل مذاهب
فى اعتبار الحكومة مسئولة عن كل تصرف من شأنه أن يزيد
مشكلات الجنس والعقيدة شدة على شدة ••• »

عاش السيد أحمد بعد أن أعلن هذا الرأى خمس عشرة
سنة ، لم يحدث فى خلالها ما يحمله على تغيير رأيه أو

تعديله، بل كان كل ما حدث في هذه الفترة مضاعفا لمخاوفه مؤيدا لاعتقاده ، فراجت في الهند الشمالية دعوة « آريا سماج » وأعلن الزعيم البرهمي طيلاق دعوة « شيفاجي » التي تنادى بتخليص الهند من الانجليز والمسلمين الاجانب، وتعتبر المسلمين جميعا « ميلاش » أي دخلاء ، وتصايح من هنا وهناك بعض الدعاة بإبطال اللغة الاردية وحذف الكلمات الفارسية والعربية التي دخلت في اللغة الهندية ، ومات الزعيم الكبير وهو أشد ما يكون يقينا بأن قضية الهند لا تحل الا على قاعدة واحدة ، وهي اعتبارها قضية قومين أو أمتين

طريق النصر

ولمن يشاء على نحو من أنحاء التعبير أن يقول ان الزعيم البرهمي طيلاق كان شريكا قويا لأحمد خان في تدعيم بناء الباكستان ، وان تحريضه في هذا الباب كان أقوى من حض الزعيم المسلم مع اختلاف المقصد والواسطة ، فما من أحد من رواد الباكستان عمل على اقناع المسلمين بضرورة الانفصال كما عمل طيلاق ، ولا نحسب أن هذه الخطة كانت طيشا من الرجل أو جهلا منه بالعواقب ، ولكنه على الأرجح علم أن النزعة الوطنية وحدها لا تكفي لتنبية أبناء قومه وإيقاظ نخوتهم فعمد الى نزعة تستثار بها القوة في طبائعهم وهي نزعة العقيدة التي تمتزج بعاداتهم وموروثاتهم وأحوال معيشتهم ، وتعمد أن يلهبها ويستفز النفوس من جانبها غير جاهل بالعواقب أو مندفع مع الطيش والرعونة ، فهجم وهو يقصد الهجوم ويحسب انه دون غيره طريق النصر المرسوم

على أن السيد أحمد خان قد أثبت في حياته وبعد مماته أنه كان بحق مربى قادة ومربى أمم ، فانه أخرج من مدرسته تلاميذ يستقلون بالرأى ولا ينقادون ليقين استاذهم انقياد المقلد المتبع الذى يمشى وراء دليله مغمض العينين ، فما من واحد من خريجي عليجزة أو مرديه المقربين الا وقد اجتهد فى قضية الوحدة اجتهاده وعالج ما استطاع أن يوحد أقوامه وبلاده ، وما من واحد منهم قد بدأ من حيث انتهى الزعيم الكبير ، بل عاد كل منهم الى أول الطريق يبدأها حيث قدر أنه واصل الى الغاية التى التوت على زعيمه ، ونهج كل منهم نهجه غير مقلد لزعيمه ولا مقلد لعامل آخر من زملائه وأبناء مدرسته

كان بحق مربى قادة ومربى أمم ، وصدقت فراسته حين تحص القيادة النافعة كلها فى كلمة واحدة : وهى « علم ثم علم ثم علم » . . . وليست هناك قيادة لا تضل بصاحبها أقوم من قيادة التعليم

أما تربيته الأُمم فقد ظهرت فى بعثه الحياة بين قومه فى زمرة أنصاره وخصومه، وقد عيب عليه بلسان أقرب المقربين اليه انه كان مفرطاً فى الصراحة عنيدا فى الحق صلباً فى مقارعة المعارضين بالحجة الواضحة وان كانت مؤلمة جارحة، ولكن هذه الصراحة التى لا تعرف المواربة هى التى ابتعثت القوة والثقة فى معسكره ومعسكر خصومه ، فمات والمعسكران معا فى حركة دائمة واستعداد متجدد ، واستفادت أفكاره ممن أيدها وممن فندوها على السواء ، وكان كل تلميذ له يعمل وكل معارض له يعمل ، وكل عمل

يثمر بعض الثمرة ويفرس من ثمرته شجرة نامية وارفة
الظلال

الشاعر « الطاف »

من مردييه الذين والاهم بعطفه وتأييده الشاعر الطاف
حسين « حالي » الملقب بشمس العلماء ، وقد فطن السيد
لعبقريته وعلم فضل الشعر في تربية الاقوام الناهضة
فاقترح عليه أن ينظم ملحمة شعرية مطولة في تقدم الاسلام
وتأخره ، فنظمها وأهداها الى كلية عليجرا وعرفت باسم
المسدسات واستظهرها كثير من شبان عصره وشيوخه ،
وكان « الحالى » صوفيا على مذهب محيي الدين بن عربى فى
حب جميع الناس ومصافاة جميع الأمم ، يقول كما قال
محيي الدين :

أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب دينى وإيمانى
بل كان فضل النبى الأكبر كما قال فى ختام قصيده « أنه
صديق كل نفس انسانية ، عطوف على القريب والبعيد ،
سواء عنده المكى والزنجى والشامى ، غفور للمسىء ، يسدى
الحير حتى الى فاعلى الشرور »

وكانت له قصيدة فى الوطنية يقول فيها : « ان أردت
خيرا لوطنك فلا تنظر الى أحد من أبنائه نظرة الغريب ،
سيان المسلم والهندستانى ، والبوذى والبرهمى ، فارعمهم
جميعا بعين الحب وسو بينهم كما تسوى بين انسانى عينيك »
وفى احدى مسدساته يقول عن القرآن : « أول ما نتعلمه
من كتاب الهدى أن الناس جميعا أسرة الله ، وانه لا يحب
الله الا من يحب خليقته ، ذلك هو الاخلاص الحق وتلك هى

العقيدة والايمان ، ان يكون الانسان في عون الانسان «
وفي مقطوعة اخرى يقول : « دع الشحناء مع من يدين
بغير دينك ٠٠٠ وأحجم عن الأذى وقابل الأذى بالاحسان ،
وليات بعد ذلك من يقول ان الدنيا جهنم فلينظر الى هذا
الفردوس »

وقد عمل الشاعر على التقريب بين الأمتين بالتقريب بين
اللغتين ، فنظم مقاطيع من الشعر في لغة يفهمها المتكلمون
بالاردية والمتكلمون بالهندستانية وقيل ان غاندى قرأ
قصيدته « شكوى الأيم » فقال : « لو تكلم أهل الهند يوما
بلغة واحدة فبهذه اللغة يتكلمون » وكتب في مقدمة ديوانه
ان المسلمين يحسنون صنعا لو استغنوا عن الكلمات الغامضة
من العربية والفارسية ، وان الهندستانيين خلقاء أن يتعلموا
الاردية لانها هندستانية متطورة

وهذا مثل من العاطفة الدينية الصوفية التي كان شعراء
الاسلام من بيثة السيد أحمد يواجهون بها قضية الوحدة
واذا كان « الحالى » قد واجه قضية الوحدة بالروح الصوفية
فقد واجهها الاخوان محمد على وشوكت على بالروح الرياضية ،
وأيد محمد على حركة المقاطعة التي قام بها غاندى بفتوى
دينية تحرم على المسلمين خدمة الشرطة والجيش ، ونادى
بأن سياسة أستاذه السيد أحمد التي تقوم على محاسنة
الدولة البريطانية قد انقضت عهدا ووجب على العاملين في
سياسة الهند أن يحاربوا تلك الدولة بكل ما يستطيعون ،
ثم انتهى الأمر بعودته الى رأى أستاذه في قضية الوحدة ،
فقال فى المؤتمر الاسلامى قبل مقتل غاندى بأكثر من ربع

قرون : « اننا نعارض غاندى لان حركته ليست بالحركة التى ترمى الى استقلال الهند كلها ، وانما هى حركة يراد بها أن يظل السبعون مليوناً من المسلمين عالة على جماعة المهاسبها » ٠٠٠ وهى الجماعة المتطرفة التى جاهرت غير مرة بأن الحل السريع لمشكلة الهند هو استئصال من فيها من المسلمين

الشاعر اقبال

ومن تلاميذ السيد أحمد رواد الباكستان الشاعر محمد اقبال الذى اشتهر باسم شاعر الاسلام، فقد كان أبناء قومه يسلكونه بين غلاة الوطنيين «الناشوناليسست» طلاب الوحدة فما زال مع الزمن حتى آمن باستحالة الوحدة ودعى مرة الى محفل « منيرفا » المشترك بين أبناء جميع الأديان والأقوام فكتب الى الداعين (فى سنة ١٩٠٩) يقول : « لقد كنت أرى وأعتقد أن الخلافات الدينية ينبغى أن تمحى فى هذه البلاد ، ولا أزال أعمل لذلك فى حياتى الخاصة ، ولكننى أجد اليوم أن محافظة كل من الأمتين على كيانها مطلوب بين المسلمين والهندستانيين ، وان الوطن الموحد فى الهند لمن الاحلام الجميلة التى تروق الأمزجة الشعرية ، ولكنه عند النظر الى الاحوال الحاضرة والنزعات الباطنة فى ضمائر الأمتين يبدو غير قابل للتحقيق »

وقد تخرج من عليجرة وغيرها رواد كثيرون لفكرة الباكستان ، كلهم اجتهدوا فى الوحدة وكلهم آمنوا باستحالتها ، ولعل صاحب الترجمة - القائد الأعظم - كان آخر من بقى على أمل الوحدة بين أولئك الرواد ، وهذه هى العبرة ذات الدلالة الكبرى فى هذا الباب

الا أن حركات الجماهير أعمق في الدلالة على ضرورة
الباكستان من هذا التطور في آراء القادة والزعماء ، وقد
أسلفنا أن الجماهير ألهمت بالفطرة ما قرره القادة والزعماء
بالروية والاستقراء بعد طول العناء ، ولكننا لا نقصد بذلك
أن الجماهير قد اندفعت في وجهتها اندفاعا لا علة له ولا
تردد في مقدماته ودواعيه . إذ الواقع أن علة هذا الاتجاه
في الجماهير أوضح من علل التطور في عقول قادتها وزعمائها،
وانما الفرق بينها وبينهم في اتجاهها انها تنقاد للسبب
المعقول ولا تعلم أنه سبب انقيادها ، ولكنه سبب معقول على
كل حال

العصبة الاسلامية

فلما أسست العصبة الاسلامية (سنة ١٩٠٦) كان
تأسيسها تلبية لشكوى المسلمين في الاقاليم التي هم قلة
ضئيلة فيها الى جانب الهندستانيين أو البرهميين والبوذيين،
ولم يقبل عليها المسلمون الذين هم كثرة في أقاليمهم الا
بعد فترة غير قصيرة ، وكانت جماعة «المهاسبها» التي تقدم
ذكرها هي الحافز لهم على الاعتصام بالعصبة والاحتراس
من عاقبة الاندماج في وطن واحد يسمع فيه صوت هذه
الجماعة بين أقوى الأصوات الغالبة على نفوس جماهيره

فالقلة الهندستانية في الاقاليم الاسلامية تمادت في
تعصبها الذميم الى أقصى حدوده ، وثبتت من احصاءات
الاشتراك في العصبة الاسلامية انها لم تنتشر بين تلك
الاقاليم عند تأسيس العصبة ، ولكنها بلغت غاية الانتشار
بعد ثورة « المهاسبها » وتوقع كتابها وخطبائها على مقدسات

الدين الاسلامى ومنها كرامة نبيه عليه السلام ، وجعلت
مكانة العصابة بين أهل تلك الاقاليم تتوطد وتستقر كلما
تجاوبت أرجاء الهند بتلبية « الدعاية » الهوجاء التى انتهت
بمقتل « المهاتما » الهندى ، لانه انكر على الجماعة تعصبها
الذميم

وأعمق من حركات الجماهير الاسلامية وأطوار القادة
والزعماء فى الدلالة على استحالة الوحدة أن المنبوذين
أنفسهم - وهم من أعرق السكان فى الهند - قد اتخذوا
مع حزب المؤتمر موقفا كموقف العصابة الاسلامية بل أشد
لدا فى الحصومة ، وأعلن زعيمهم الدكتور (امبديكار) ان
عناية غاندى بالمنبوذين انما هى عناية يريد بها أن تستقل
الهند خالصة لقومه ، وأن قومه بالنسبة الى المنبوذين
كالاوربيين بلا خلاف ، وأصر الدكتور امبديكار على هذا
الموقف بعد الوصايا المتكررة من غاندى بانصاف المنبوذين
وتسميتهم باسم الهاريجان أى أبناء الله ، وقد يمهده
العذر فى اصراره ان وزارة المؤتمر بمدراس - وهى وزارة
يؤيدها ستة وعشرون من النواب المنبوذين - رفضت قرارا
اقترحه الزعيم « راجاه » يبيح للمنبوذين دخول المعابد
الهندية ، ولولا أن هؤلاء المنبوذين لا تضمهم فى الهندأماكن
قابلة للاستقلال ، وانهم هم أنفسهم مستسلمون لقسمتهم
لأنها جزء من عقيدتهم ، لوجدت فى الهند دولة منبوذة
مستقلة يسكنها أربعون مليونا أو يزيدون

العالم الإسلامي

العالم الاسلامى

كانت الحركات التى تجاوزت بها أرجاء العالم الاسلامى خلال القرن التاسع عشر عاملا فى توجيه قضية الباكستان الى الوجة التى تدرجت فى الاتجاه اليها حتى استقرت عند منتصف القرن العشرين على وضعها الاخير

وكانت حوادث العالم الاسلامى خارج الهند لا تقل عن حوادث الهند الداخلية فى تحويل أنظار مسلميها رويدا رويدا الى ضرورة الاستقلال بحكومة منفصلة ، وهى حكومة الدولة التى عرفت الآن باسم دولة الباكستان

وكانت الحوادث الخارجية والداخلية معا ترسم مصير القضية وتقرره وتقيم له حدوده ، حتى أصبح ذلك المصير كما قدمنا حلا مفروغا منه متفقا عليه بين القادة والجماعير ، فلا حاجة به الى تلك المؤثرات البلاغية أو السياسية التى يلجأ اليها القادة كثيرا لاقتناع أتباعهم بما هم مقتنعون به ، ولكنهم يستجيشون لها شعور الجماعات تهيئة لقبوله على النحو الذى تنهيا له نفوس الجماعات

وكان القرن التاسع عشر منذ أوله فترة قلق شديد فى بلاد العالم الاسلامى من أقصى أطرافها الى أقصاها، وتلاحقت فيه الدعوات بغير انقطاع فى كل أمة على النهج الذى يناسبها، فلم يخل بلد واحد فى العالم الاسلامى من دعوة أو من

حركة أو من ثورة ، وكلها تطلب التغيير ولا ترضى بالواقع
الذي صارت اليه

وتجتمع تلك الدعوات جميعا فى خصلة واحدة على تباين
أشكالها وغاياتها ، وهى أنها جميعا كانت « رد فعل » سريع
لطفيان الاستعمار الاوربى على الاقطار الشرقية ، وقد ذهبت
حملات الاستعمار حيننا باستقلال أمم وأضعفت أحيانا كيان
الأمم التى بقيت مستقلة ، وكشفت لهذه وتلك عن سوء
حال لا قرار عليه

ووقع فى النفوس حيث اصطدم المسلمون بسلطان الدول
المستعمرة انهم أصيبوا بما أصيبوا به من جراء الفساد
والفسوق والانحراف عن أحكام الدين ، فلو عملوا بأحكام
دينهم لما اصطلحت عليهم عوامل الضعف ولا نزل بهم ذلك
العقاب جزاء وفاقا من الله

وتحركت كل أمة على النحو الذى يناسبها لعلاج هذا
الضعف وتجديد قوة الدين ، فقامت فى بعض الأمم دعوات
تحارب الترف وتنكر كل بدعة من بدع الحضارة الحديثة ،
وقامت فى بعضها دعوات توفق بين قواعد الدين وفرائضه
وبين العلوم العصرية والمطالب الدنيوية ، وراجت فى الأمم
جميعا دعوات التطهير والاعتصام من الفتنة بعبادة الله على
طريقة من الطرق الصوفية ، وظهر فى البلاد التى يعتقد
أبنائها برجة الامام المنتظر كثير من ادعياء الامامة والهداية
الذين يبشرون بمذاهبهم تارة على سنة القديم وتارة على
سنة لهم يبتدعونها ويجهدون بها فى استئناف قوة
الاسلام على نمط يخالف الاجماع

من هذه الدعوات دعوة محمد بن عبد الوهاب في نجد ،
ودعوة الباب والبهاء في فارس ، ودعوة القادياني في الهند ،
ودعوة السنوسي في المغرب ، ودعوة محمد أحمد المهدي في
السودان ، ودعوة جمال الدين الافغاني وتلاميذه في كل بلد
وصل اليه بشخصه أو برسالته . ومن هذه البلاد فارس
والهند ومصر والعراق وتركيا ، وأطراف من المغرب الاقصى
والشرق الاقصى الى تخوم التركستان والصين

أثر الدعوات الدينية

كل دعوة من هذه الدعوات كان لها أثرها المباشر في
البلاد الهندية ، فأقبل المسلمون بالالوف على دعوة ابن
عبد الوهاب ، وقام شريعة الله بنشر الطريقة «الفرائضية»
التي يدل اسمها على غايتها وهي ايجاب الفرائض والعمل
بنصوص الشريعة ، وتنسب الى هذه الطريقة وسائر الطرق
التي أخذت بالدعوة الوهابية ثورة المسلمين في الحركة التي
اشتراك فيها أهل الهند سنة ١٨٥٧ وسميت بحركة
«العصيان» وكانت لها عند «البراهمة» أسبابها الدينية
أيضا لانهم اعتقدوا أن الانجليز سيرغمونهم على استباحة
بعض المحرمات

وقد كان ترديد الهند للدعوة الوهابية أمرا مفهوما يسير
التعليل لعدم العلاقة بين الجزيرة العربية وشواطئ الهند
الشرقية ، ولكثرة الحجاج من مسلمي الهند في كل سنة ،
ولانتشار أخبار القتال بين الوهابيين وغيرهم في أنحاء البلاد
الاسيوية ، ولاسيما الاسلامية منها ، كبلاد الملايا وبلاد
الافغان

أما العجيب حقا فهو انتشار أخبار الثورة المهديّة في السودان بين الأمم الآسيوية وتحفز القبائل للثورة على حدود الأفغان ، حتى توجس الإنجليز واهتموا باستطلاع آراء العظماء من المسلمين عن حقيقة الرسالة المهديّة وحض الفقهاء والعلماء على إصدار الفتاوى التي يبيّنون بها نصيب تلك الرسالة من الصحة أو من الموافقة للعقائد الإسلاميّة

لكن الحالة النفسيّة التي كان عليها مسلمو الهند في تلك الآونة تفسر هذه العجيبة وتجعلها من مألوفات كل يوم بالقياس إلى تلك الحالة النفسيّة ، فإن العقيدة الدينيّة حلت في نفس الهنود - من المسلمين وغير المسلمين - محل الغيرة الوطنيّة ، وجاءت غاشية الحزن التي غمرت نفوس المسلمين خاصّة بعد زوال دولتهم وانكسار شوكتهم فأضافت إلى عقيدة الدين قوة على قوة ، واشتد بهم السخط مع الاضطهاد المتعمد والحرمات المدبر فتطلّعوا إلى أبواب الأمل من كل فج قريب أو بعيد ، وأصبحت حوادث السودان عندهم كأنها من حوادث الحدود

ولم يزل هؤلاء المسلمون يسمعون في بلادهم وفي البلاد التي يرحلون إليها حجاجا أو تجارا أو زوارا أن الطمع في استعمار الهند هو سبب البلاء الذي أصاب أمم الشرق جميعا ولا يزال يصيبها ويعرضها واحدة بعد أخرى لضياح الاستقلال وكساد الحال ، فوقر في النفوس أنهم مسئولون قبل غيرهم عن محنة العالم الإسلامي بأسره ، وإن غيرهم من أمم العالم الإسلامي حقيقون منهم بالعطف على الأقل إن لم يكن لها منهم عون بالعمل أو بالمقال

وليس من محض المصادفة أن يكون أعظم دعاة النهضة
الاسلامية في أواسط القرن التاسع عشر - جمال الدين
الافغانى - متاخما للهند في نشأته ، ومتطلعا الى الهند أول
ما تطلع لنشر دعوته ، وهناك قال لهم قولته المشهورة :
« لو كنتم يا أبناء الهند ضفادع بعدتكم من الملايين ثم أردتم
أن تزيلوا الجزيرة البريطانية من موقعها في البحر
لحزحتموها عنه وقذفتم بها الى قراره »

مسألة الخلافة

الا أن المسألة التي تضاءلت الى جانبها كل مسألة من
مسائل العالم الاسلامى فى حساب مسلمى الهند هى مسألة
الخلافة الاسلامية، وكانت يومئذ فى آل عثمان بالقسطنطينية
فقد كان أمراء الهند أنفسهم يستقبلون تلك الخلافة فى
الشدائد وينظرون اليها نظرتهم الى الثمالة الباقية من عز
الاسلام ودولته الدنيوية

ومنذ عهد الاحتلال البريطانى توجهت الانظار الى سلطان
آل عثمان وكان فى طبيعة المتوجهين اليه سلطان ميسور
على مقربة من سلطنة حيدر أباد ، فانه كتب الى « الخليفة »
يبلغه حقيقة الخطر على الديار الاسيوية وينذره أن الخطر
بالغ من غربها لا محالة الى حوزة القسطنطينية ، ولم يكن
فى وسع الخليفة أن ينجده بالعون الذى أراده فكتب الى
نابليون يطلب هذا العون وجاءه الجواب منه بانتظار المدد
فى جيش جرار يضرب الدولة البريطانية فى مقتلها ويخلى
الطريق الى الهند من شباكها

ولم يزل أمراء الهند - فضلا عن سواد أهلها - يتطلعون

الى الخلافة فى القسطنطينية حتى زالت وانتهت بخاتم
الخلفاء السلطان عبد المجيد ، فسعى سلطان حيدر اباد الى
التزوج من احدى بناته وقيل فيما قيل عن اسباب هذا
الزواج انه « زواج سياسى » يمهّد به السلطان الى امامة
المسلمين فى الهند على الاقل ، ان لم تنعقد له الامامة على
العالم الاسلامى باجمعه

ولم يتفق لمسلمى الهند ما يضعف مكانة الخلافة بينهم
كما اتفق للمسلمين الذين حكمتهم الدولة العثمانية فتمردوا
على حكمها وتغلّبت فى نفوسهم دفعة الوطنية على الولاء
لحكومة ساءت سياستها وخرجت فى رأى الاكثرين من احكام
دينها ، بل كان مسلمو الهند يزدادون عطفًا على دولة الخلافة
كلما اشتدت بها المحن من داخلها وخارجها ، وينسبون
الثورات عليها احيانًا الى دسائس الاستعمار وغواية الدول
الاجنبية بالرشاوى والوعود الكاذبة

ودام الحال على هذا الى أن كانت الحرب العالمية الاولى
ووقع ما وقع من الاصطدام بين تركيا وبريطانيا العظمى فى
مصر والعراق مباشرة ، وفى الاقطار الاخرى من طريق
الدعوة أو تحريض الامارات الوطنية بجزيرة العرب، طموحا
الى اقامة دولة عربية واحدة تضم اليها الامم العربية التى
كانت خاضعة لسلطان بنى عثمان

وعمد سياسة الانجليز الى تهوين الامر على مسلمى الهند
تارة بقولهم ان الحملة على تركيا انما هى حملة على جماعة
تركيا الفتاة الذين اغتصبوا سلطان الخليفة وجعلوا الخلافة
العبوة فى ايديهم وتبرأوا من العصبة الاسلامية تمييزا

عليها للعصبة الطورانية ، فدفعوا العرب بذلك دفعا الى
احياء العصبة العربية بزعامة أمير من سلالة بيت الرسول ،
وتارة يهونون الأمر على مسلمى الهند بتوكيد العهد لهم
ان بريطانيا العظمى لن تمس دولة الخلافة ولن تسمح
بتقسيمها فى معاهدات الصلح بين الطامعين فيها

فلما انعقدت معاهدات الصلح خابت آمال مسلمى الهند
فى وعود الدولة البريطانية وأيقنوا أنهم خدعوا وسيقوا الى
معونتها فى هدم دولة الخلافة وتمزيق أشلائها ، وأعلن زعماء
المسلمين - تلاميذ أحمد خان - ان مسالة الحكومة البريطانية
فى الهند سياسة قد انقضت أوانها ووجب نقضها ، لان هذه
الحكومة قد أخلفت وعودها للمسلمين وللبرهيمين فى الشؤون
الدينية والسياسية ، وانتهز غاندى الفرصة السانحة
فجعل مسألة الخلافة من المسائل الأولى فى برنامج المؤتمر ،
وراح مع الأخوين محمد على وشوكت على يجوبون أنحاء
الهند شاهرين الحرب على الحكومة معلنين الاتحاد بين جميع
الهنود على حربها ورفض التعاون معها

ويدل على مدى القلق الذى دهم نفوس المسلمين فى الهند
من جراء السياسة البريطانية مع الدولة العثمانية أن الوفا
من مسلمى الحدود هجروا بلادهم وقصدوا الى بلاد الافغان
ليعيشوا فى ظل حكومتها الاسلامية ، وان مولانا محمد على
قصد الى تركيا وفلسطين ومصر ليجمع كلمة الترك والعرب
على استبقاء الخلافة والاتفاق على تأسيس « دولة اتحادية »
تضم اليها طلاب الاستقلال فى غير سيادة لقوم من الاقوام
على قوم آخرين

وبينما الهند تغلى مراجلها بالثورة والمقاومة السلبية
تارة والمقاومة الايجابية تارة أخرى اذا بمصطفى كمال يلغى
الخلافة وينفى خاتم الخلفاء العثمانيين من القسطنطينية
أمن المصادفة ما حدث بعد هذا أم من تلاحق الاسباب
الكثيرة وتلاقيها فى وقت واحد غير منظور قبل ذلك ؟

قد يكون هذا وذاك تعبيرين مختلفين لمعنى واحد، فليست
المصادفة الا أسبابا مجهولة أو غير مستقصاة الى نهايتها ،
ولكننا على كل حال لا ننوى أن نرجح قولاً من القولين فى
هذا السياق ، اذ الأمر المحقق أن القائد الأعظم قد برز
للزعامة فى السياسة الهندية خلال هذه الآونة بعينها ،
وانه كان على آراء مخالفة لآراء زعماء المسلمين فى مسألة
الخلافة وفى مسألة المقاومة السلبية ، فكان أحق الزعماء بأن
يتناول عصا القيادة فى الآونة التى فترت فيها حركة الخلافة
وبطل التعاون من جرائها بين المسلمين والبرهمنين فى
المقاومة السلبية

كان جناح من مبدأ الأمر يؤمن بضياغ الجهود التى تبذل
فى الهند لتأييد الخلافة العثمانية ، وكان يؤمن كذلك بأن
المقاومة السلبية سياسة ضررها بالهنود فى النهاية أكبر
من ضررها بالدولة البريطانية

فلما تحولت جهود المسلمين الهنود الى الداخل كان أصلح
الزعماء لتوجيه تلك الجهود زعيم يحصر جهوده فى بلاده ولا
يسلم مقودها لمن يتخذون مسألة الخلافة وسيلة للمناورات
السياسية ، ولم يكن تضافر المؤتمر وزعماء المسلمين على
نصر الخلافة الاسلامية الا مناورة من المناورات التى

لا يسيغها طبع جناح ولا تدخل في تفكيره ولا في شعوره
وكان اجتماع الخواطر على استقلال المسلمين بدولتهم في
الهند نتيجة طبيعية لقنوطهم من عمل شيء ناجع في ابقاء
الخلافة العثمانية بعد أن تخلى عنها أبناؤها

والمسلم على الدوام يفرق بين الحاكم وولي الأمر في فرائض
الطاعة والمعاونة ، فهو لا يدين بالطاعة لغير الله ولا يقبل
الحكم من « ولي الأمر » الا لأنه يتولاه بأمر الله ولا طاعة
لمخلوق في معصية الخالق

أما « الحاكم » الذي ليس « وليا للأمر » فطاعته ضرورة
قاسرة والخروج عليه واجب كلما امتنعت هذه الضرورة القاسرة ،
وقد كان العزاء من قبل أن ولي الأمر قائم بالخلافة وان
كانت ولاية روحية ، فاما ولا خلافة فليس من المعقول أن
يخرج المسلمون من طاعة الدولة البريطانية ليدخلوا في
طاعة الدولة البرهمية ، وخير العوض في هذه الحالة قيام
دولة مستقلة للمسلمين في بلادهم ، ان لم تكن هي دولة
الخلافة فهي حكومة اختيار لا حكومة اضطرار في غير موجب
للاضطرار

كذلك كانت مسألة الخلافة - من مسائل العالم الاسلامي
الكبرى - عاملا مهما في قيام باكستان وفي توجيه القيادة
الى الزعيم الذي آمن منذ البداية بحصر الجهود في هذه
الناحية ، فكان هذا أيضا تفسيرا واضحا للزعامة التي تقود
الجماهير بالقول الصادق الصادع ، من غير تأثير ولا اضطرار
الى أساليب التأثير

الملتقى
بدر

والملتقى هو ملتقى القضية وزعيمها ، ملتقى باكستان
والرجل الذي رشحته الحوادث لقيادة المساعي المتشعبة التي
جمعت شملها وأبرزتها كما هي اليوم دولة بين كبريات
الدول في القارة الآسيوية ، وفي العالم بأسره

في سنة ١٩٠٦ أخذت بريطانيا العظمى تفكر في توسيع
نصيب الهنود من الحكومة الذاتية

وفي هذه السنة اجتمع في « دكا » زعماء المسلمين لانشاء
العصبة الإسلامية

وفي سنة ١٩٠٨ - بعد سنتين من انشاء العصبة - توجه
وفد من زعماء المسلمين الى اللورد منتو - حاكم الهند -
يطلبون منه وضع قواعد للانتخاب تكفل تمثيل المسلمين في
المجالس النيابية التي تشترك في الحكومة الذاتية ، وان كان
اشتركا في حدود الشورى وابداء الآراء لا يتجاوزهما الى
حدود الابرام والتنفيذ والحكومة الفعلية

لم يكن جناح من مؤسسي العصبة ، ولم يكن كذلك من
اعضاء الوفد الذي عرض مطالب المسلمين على الحاكم العام

ولا يفهم من هذا انه كان يقاطع الحركة الإسلامية ويجهل
دواعيها ، وانما يفهم منه انه كان الى ذلك الحين يعتقد أن
المؤتمر أداة صالحة لخدمة الهنود جميعا من مسلمين

وبرهيمين (١) وظل على هذا الاعتقاد بعد انشاء العصبة
بسبع سنوات

ولما ايقن ان وجود العصبة لازم لرعاية المصالح الاسلامية
وقبل الانضمام اليها طلب من شاهديه ان يقررا في كتاب
ترشيحه ان رعاية هذه المصالح لا تعنى بحال من الاحوال
نقض الولاء للقضية القومية الكبرى التى وقف عليها حياته

وفى سنة ١٩١٤ كان هو رئيس البعثة الهندية التى
قصت لندن لشرح القضية الهندية وتوضيح المطالب التى
ينتظر اهل الهند تحقيقها بعد نهاية الحرب العظمى

وفى سنة ١٩١٦ كان هو رئيس اللجنة التى تالفت
للاحتفال بمقدم غاندى من افريقية الجنوبية ، وكان رئيسا
لفرع من اكبر فروع العصبة المؤلفة لتوسيع حقوق الحكم
الذاتى ، وهو فرع بومباى

ويمكن ان يقال ان وفاة الزعيم البرهمى جوكهيل فى سنة
١٩١٥ كانت هى مفترق الطريق بينه وبين سياسة العمل
الموحد فى القضية الهندية ، واول الطريق الذى التقى فيه
بقضية باكستان واصبحت قضيتها فيه هى قضية
قائدها الاعظم بغير افتراق

كان جوكهيل رجلا نادرا فى نبلة وحكمته وسماحة عقله ،
وكانت قدرته على فهم موقف قومه وغير قومه هى

(١) استعملنا فى هذا الكتاب كلمة البرهيمين للكثرة الغالبة من الهنود
غير المسلمين ، وهى كلمة تعوزها الدقة ولكنها اصح دلالة من كلمة الهنادكة
وكلمة الهنود

الهبة الزعامية الكبرى التي انفرد بها ، او كاد ان ينفرد بها
بين الزعماء البرهميين

كان يتقبل بالارتياح نظم الانتخاب التي تعطي المسلمين
ضمانهم في المجالس النيابية ودواوين الحكومة ، وكان يتقبل
بالارتياح ما هو اكبر من ذلك وادعى الى التوفيق بين
الاكثرية والاقلية من ابناء البلاد الهندية جمعاء ، وذلك هو
النظام الاتحادي « الفدرالى » اذا لم يكن منه بد في عهد
الحكومة الوطنية

وقد كانت هذه السياسة التي انتهجها الزعيم البرهمي
النبيل من املاء الواقع كما كانت من املاء سماحته وحكمته
وبعد نظره

كانت من املاء الواقع لان الشقاق على السلطان عبث
وهو محصور في ايدى القوة الاجنبية ، وكان من حماقة ان
يتقاتل البرهميون والمسلمين على سلطان لم تنزل عنه
بريطانيا العظمى ، ولم يكن ظاهرا في السنوات الاولى من
القرن العشرين انها تنوى النزول عنه في وقت قريب
فانتهج جوكهيل خطة التوفيق لانها اسمح الخطلط
واحكمها ووافقها لسياسة الواقع ، ومضى على هذه الخطة
في خلال زعامته التي انتهت بوفاته قبل نهاية الحرب العالمية ،
فكانت هذه الكارثة ضربة قاصمة لسياسة الوحدة وتضافر
الجهود القومية

وقد تتلمذ جناح على جوكهيل واعجب به وحافظ على
الولاء له واقناع المسلمين بمجاراته في ولائه ، فلما قضى
الرجل (في شهر فبراير سنة ١٩١٥) بدا الانحراف في

دوائر المؤتمر عن ذلك النهج القويم واخذت الشكوك والظنون
تساور تلميذه الكبير وتقنعه بضرورة العزلة التي كان يجاهد
عقله ونفسه على رفض الاقتناع بها غاية جهده

ولكنه لم يعجل ولم يياس ولم يكن من دأبه ان يتراجع
سريعا عن رأى آمن به وثابر زمنا على تنفيذه ، فحاول بعد
سنة من وفاة جوكهيل ان يقرب بين العصبة والمؤتمر ،
واسندت اليه رئاسة مجلس العصبة في سنة ١٩١٦ فتعمد
ان يعقده في مدينة « لكتاو » حيث انعقدت جلسة المؤتمر
الكبرى في تلك السنة

وقد واصل سعيه حتى اتفقت العصبة والمؤتمر على
المسائل المختلف عليها جميعا وخرجت الهيئتان بالميثاق
المشترك بينهما ، فاطلق الفريقان على جناح لقب « سفير
الوحدة » واشتهر بين البرهمنين والانجليز باسم رسول
السلام

ان المساجلات التي دارت بين الفريقين بعد ميثاق
« لكتاو » تملأ المجلدات الضخام وتضل القارئ في تيه من
المتناقضات والتهم والردود لا يسعنا في هذه الرسالة ان
نستقصيها او نلخصها ، وليست بنا حاجة الى استقصاء لها
او تلخيص

ولكننا نحيط بها جميعا اذا رجعنا الى سياسة الواقع
في عهد جوكهيل وسياسة الواقع في السنوات الاخيرة من
الحرب العالمية الثانية

لقد اسلفنا ان سياسة الواقع في عهد جوكهيل كانت
تهديه الى قبول الضمانات المطلوبة للمسلمين ، لان الخلاف

عليها عبث مع استئثار الدولة البريطانية بالسلطان كله
واجتماع ازمة الحكم كلها في يديها ، سواء في الهند او في
العاصمة البريطانية

اما سياسة الواقع في السنوات الاخيرة من الحرب العالمية
الثانية فقد كانت على نقيض تلك السياسة

كان نزول الانجليز عن السلطان قد أصبح في حكم الواقع
القريب ، وكان من المحقق عند البرهمنيين والمسلمين ان
السلطان « الفعلى » سينقل رويدا رويدا الى ايدي الهنود ،
ومنهم من كان كبير الأمل في انتقاله دفعة واحدة خلال
سنوات لا تجاوز اصابع اليد الواحدة

ولهذا اخذ ساسة المؤتمر يرفضون ما قبلوه واعتبروه
من الحلول المعتدلة قبل ذلك ، وكلما أصبحت السلطة القومية
حقيقة واقعة انكر ساسة المؤتمر شيئا مما كان مقبولا عندهم
وتشبهوا باحتكار القيادة واحتكار دعوى النيابة عن الهند
قاطبة ، فمنهم لا من غيرهم تصدر الأوامر والمشورات ،
ومعهم لا مع غيرهم يتفق الانجليز ونواب الطوائف

وجرت الانتخابات مرات فآبى ساسة المؤتمر ان يعترفوا
بنائب ناجح ما لم يكن عضوا في المؤتمر مقرا لسياسته
ومواثيقه

وانكروا حق العصبة في النيابة عن مسلمى الهند وقالوا
انها جماعة من جماعات كثيرة ، ثم صمدوا على هذا الإنكار
بعد ثبوت هذه النيابة بنسبة النجاح بين المرشحين ، فقابلت
العصبة انكارا بانكار ، واعلنت أنها لا تعترف بالمسلمين

اعضاء المؤتمر ما لم يكونوا أعضاء في العصبة ممثلين لها
بتزكية منها



وشاعت فكرة الانفصال وجعلت تزداد شيوعا كلما ازداد
اليقين بصعوبة التفاهم على ضمانات الحكومة الموحدة ، ونادى
غاندى من جانبه باستحالة الفصل بين التوامين السياميين
الذين تجمعهما بنية واحدة تموت بانفصال أحدهما عن
الأخر

ونادى حزب المؤتمر بشعاره الذى لا يتحول عنه وهو
« الاستيلاء أولا ثم التقسيم ثانيا » وان البرهميين والمسلمين
عليهم معا ان يناضلوا فى سبيل الاستيلاء على الحكم القومى
ثم يعملوا على التقسيم بعد الاستيلاء عليه

وظفق جناح يجيب على هذا الشعار بشعار مثله يلخص
به موقفه وموقف العصبة الاسلامية ، وهو ان المسلمين
لا يناضلون فى سبيل عبوديتهم

وجاء يوم يئس فيه القائد الأعظم كل اليأس من التفاهم
على ضمانات الحكومة الموحدة ، وأجمع النية على ضرورة
الانفصال

ويبدو من وقائع شتى انه كان على حق فى يأسه وتعويله
الحاسم على فض الخلاف باقامة دولتين منفصلتين
ولا نطيل فى سرد هذه الوقائع لانها كما اسلفنا تستوعب
المجلدات الضخام فى الشرح والمناقضة والرد واعادة الرد من

الجانبين ، ولكن واقعة كشمير بعد الانفصال مثل يفنى عن
أمثلة كثيرة على صعوبة التفاهم بالبيانات والحجج المنطقية
والمقاييس العامة التي يتفق عليها الطرفان بل يتفق عليها
جميع الأطراف

وخلاصة الواقعة ان سلطان حيدر اباد المسلم هم
بالانضمام الى الباكستان فانذرتهم حكومة الهند الا يفعل
واتبعت الانذار باحتلال بلاده عنوة لأنها ترى ان المعول على
الشعب لا على السلطان ، فلما أرادت الباكستان أن تطبق
هذا المبدأ نفسه وتلحق بها ولاية كشمير التي يبلغ المسلمون
في جميع اقاليمها - ومنها اقليم جمو - أكثر من سبعين في
المائة ، رفضت حكومة الهند هذا المبدأ وأعلنت انها تقاومه
بالقوة العسكرية ، مع ان الكثرة الغالبة بين أبناء حيدر اباد
من المنبوذين الذين لجأوا الى الولاية الاسلامية لانهم لا يقبلون
المهانة التي يعاملون بها بين البراهمة . اما أبناء كشمير
المسلمون فلا فاصل بينهم وبين اخوانهم في العقيدة ولا في
الميول السياسية ولا في الموقع الجغرافي والعلاقات الاقتصادية
ومن هذا المثل المشهود على ملاءمة العالم تتضح صعوبة
التفاهم في الامور الداخلية على مبدأ متفق عليه بغير ضمان

خلاف في الأسس

ولا يستوفي البيان عن طبيعة الخلاف بين جناح وساسة
المؤتمر اذا حصرناه كله في قضية الباكستان
فالواقع انه خلاف في أسس التفكير يتناول السياسة

الهندية في جميع مناحيه ولا يقف عند القضية الاسلامية
البرهمية

فقد كان جناح يستغرب سياسة غاندى ولا يؤمن
بجدوى « التنسك » ورفض الحضارة ومقاطعة الوظائف
والمصانع والصناعات العصرية برمتها ، ويقول انه يريد
حملة تضرب الهدف ولا تضرب صاحبها ، وضرب الهدف
في رايه انما يكون بالوسائل السياسية ووسائل المقاومة
الفعالة عند لزومها

وغاندى في اعتقادنا رجل عظيم أو روح عظيم كما وصفناه
في كتابنا عنه بعد مقتله ، ولكن المؤيدين لمذهبه والمعارضين
له متفقون على انه رجل برهمى (١) في كل قطرة من قطرات
دمه وكل باعث من بواعث روحه : اساليبه برهمية ووسائله
برهمية ومثله العليا برهمية وصيامه ومقاومته السلبية
ودعوته الى الاهمسا من صميم النحلة البرهمية ، وغايته
من حركته ان يجعل الهند « رام راج » اى مملكة الاله
« رام » رب البراهمة ، وهو الرب الذى انطلق لسانه بدعائه
ساعة أصيب برصاص الجانى المعتدى عليه

وان هذه الزعامة المستفرقة في البرهمية لتستدعى
بطبيعتها زعامة اخرى تقابلها وتشبهها في تمثيل قضيتها
والعمل بروحها في أداء رسالتها ، فلم يكن مع قيام غاندى
مناص من قيام جناح أو من يحل في محل جناح

(١) كان غاندى جينيا من طائفة الجينية التي خرجت من بين البراهمة
لاصلاح بعض معتقداتهم ، ولكننا نطلق البراهمة كما أسلفنا في هذه
الرسالة على كل من ينتمى الى الكثرة الغالبة من الهنود غير المسلمين

وقد كان استقلال الراى يدفع بجناح الى مخالفة المؤتمر
ومخالفة العصبة الاسلامية فى وقت واحد

كان يخالف المؤتمر فى سياسة غاندى المستفرقة فى
البرهمية ، وكان يخالف العصبة وجمهرة المسلمين الهنود
فى حركة الخلافة ، لانه زاول السياسة ومسألة الخلافة تكاد
تلفظ أنفاسها ، واشتد حزنه فى ابان حركة الخلافة لضياع
هذا الجهد فى غير طائل ينفع مسلمى الهند أو ينفع الخليفة
والخلافة ، فهجر الهند وأوشك أن يعتزل السياسة وراح
يقيم فترة فى البلاد الانجليزية الى أن تهدأ السورة وتثوب
الأمور الى قرارها

فأما خلافه مع حزب المؤتمر فلم ينحسم ، وأما خلافه
مع العصبة فقد انحسم بانقضاء اللجاج فى مشكلة الخلافة ،
وأصبح مصير الخلافة معززا لقيام دولة اسلامية مستقلة فى
البلاد الهندية ، فلا يجتمع على مسلمى الهند ضياع الخلافة
وضياع الاستقلال الى آخر الزمان

الامل الأكبر

لا جرم يدرك الشاعر الملهم محمد اقبال أن الرجل قد
خلصته الحوادث ومحضته التجارب ومحضته آراؤه وحصافته
لمهمة فريدة لا يضارعه فى الاستعداد لها أحد من أبناء
عصره ، فذكره غير مرة انه هو الأمل الأكبر لقيادة الحركة
الاسلامية وبناء صرح الدولة المرجوة ، فكتب اليه قبل قيام
الباكستان بأكثر من عشر سنوات يقول له : « اننى اعلم
أنك رجل جم المشاغل ، ولكنى أرجو الا تضجرك كتابتى

اليك حيناً بعد حين ، اذ انت اليوم المسلم الوحيد في الهند
الذى يحق للأمة كلها ان تتطلع اليه لقيادتها في هذه الزوبعة
التي تهب على شمال الهند الغربية ، واننى لمبلغك اننا نعيش
فعلاً في حرب اهلية لولا الشرطة والجيش لعمت في مثل لمح
البصر »

وذاك ان الشاعر الملمهم على غيرته الدينية كان يأنف من
استجداء المعونة للخلافة ، ويقول عن الوفود التي تؤم
الغرب لطلب هذه المعونة انها ذهبت تحمل « الكوز » لتجمع
فيه فضلات المحسنين !

ومن طرائف هذه القضية ان « الاسم » الذي تسمى به
قد وجد لها في ابانه ، (سنة ١٩٢٣) فسماها « رحمة على »
ارض الظهير واتخذ هذا الاسم من حروف اسماء الاقاليم
التي يراد تكوين باكستان منها ، وهي بنجاب واسام
وكشمير وسند وتليها « تان » من اسم بلوشستان

وقد قيل بحق ان باكستان دولة خلق اسمها قانوني
والهمها ضميرها شاعر واقام لها بنيتها التي تحمل اسمها
وضميرها قائد ، او قائد اعظم ، هو جناح

وخير تلخيص للموقف قبل قيام باكستان باشهر
معدودات ان نرجع الى حديث للقائد الاعظم افضى به الى
مندوب صحيفة « المصور » قبل انتهاء سنة ١٩٤٦ بيضعة
ايام يذكر فيه المشابهات بين قضية الهند وقضية مصر
والمناقضات بينهما ، وفيه يقول : « اذا لم يتحقق باكستان
في الهند فان الشرق الاوسط كله - وبخاصة مصر -
سيكون في خطر من التوسع الهندوكى الاستعماري المنتظر ،

وسيتخذ هذا الاستعمار الهندوكى طابعا اشد خطرا وشناعة
من الاستعمار البريطانى فى القرن التاسع عشر واولئ القرن
العشرين «

ثم قال : « اذا لم يوافق الهندوكيون على مشروع
الباكستان فلن نشترك معهم فى الجمعية التشريعية التى
ينادون بها . اما الكونجرس الهندى المقترح لتوحيد الهند
تحت حكومة مركزية ، فمشروع استعمارى محض ، يحتمل
كثيرا ان يهدد منطقة الشرق الاوسط كلها بالخطر ، بحجة
انها المجال الحيوى والسوق القريبة للمنتجات الهندوكية ،
على طريقة المرحوم هتلر ! »

واستطرد قائلا : « ان اعدل حل للقضية الهندية هو
ايجاد دولتين هنديةتين احدهما منفصلة عن الاخرى : الاولى
مسلمة فى الشمال الغربى والاخرى هندوكية فى الشمال
الشرقى ، يتبادل بينهما السكان حتى لا يكون فى ايها قلة
طائفية ويقوم بينهما اساس للتفاهم المشترك وتبادل المعونة »

واشار الى وحدة وادى النيل فقال : « ليس ثمة تعارض
بين دعوتى هذه الانفصالية ورضائى عن اتحاد وادى النيل
ولا عن الاتحاد بين مسلمى مصر واقباطها ، لاتفاق اللغة
والعادات والتقاليد بين شطرى الوادى ، فضلا عن الشعور
والتشابه العجيب فى تكوين المصرى والسودانى ، ولكن
يدعو الى الانفصال بين المسلمين والهندوكيين الاختلاف فى
كل شئ حتى فى الاكل ، فان الهندوكى لا يريد المسلم ان
ياكل لحم البقرة التى يعبدها

» واذا كان الاقباط فى مصر يعيشون فى صفاء ووثام مع

المسلمين فان الأمر بين المسلمين والهندوس مختلف جدا ،
لان الأقباط يؤلفون عشرة أو خمسة عشر في المائة من مجموع
السكان الذين لا يجاوزون عشرين مليونا . أما مسلمو الهند
فهم حوالي مائة مليون ويستطيعون ان ينشئوا دولة قوية ،
ومساحة مصر صغيرة بخلاف الهند فهي أكبر من القارة
الأوربية ومن السهل ان تنقسم الى دولتين عظيمتين ، وفي
الاسلام والمسيحية تسامح ولا تتجاوز الفروق بينهما
شؤون العبادة الخاصة ، أما الديانة الهندوسية فهي التي
تسير الهندوس في كل شؤون حياتهم ، وبينها وبين الأديان
السماوية المعروفة فوارق كبيرة جدا تحمل في ثناياها كل
أسباب النزاع والخصومة »

مهمة غير سهلة

مهمة وجدت قائدها وقائد وجه مهمته ..

تهيأ لقيادتها وتهيأت لقيادته خلال سنوات متتابعات
أبانت فيها الحوادث ما يلزم ومن يلزم : ما يلزم من العمل
ومن يلزم لانجاز ذلك العمل ، وانتفى من الوسط كل باعث
من بواعث القيادة التي تحاول أن تقنع بغير ما يوجبه الواقع
من براهين الصدق في الاقناع

هذا كما أسلفنا غير مرة هو تفسير الإعجوبة النادرة في
قيادة القائد الأعظم : أعجوبة قائد للجماهير يخاطبها بلهجة
كانها لهجة العالم في المصنع أو لهجة القاضي في سجلات
الأحكام

لكن الفارق بعيد بين مهمة مهياة ومهمة ممهدة مذلة
ان المهمة الممهدة سهلة مذلة المصاعب تتطلب من العامل

لها جهد اتمام وتكملة ، لا جهد تأسيس وانشاء
أما المهمة المهيأة فقد تكون أعسر مهمة يتولاها صاحبها ،
وكل ما هنالك أنه يتولاها هو ولا يتولاها غيره ، لأنه أقدر
على مصاعبها من الآخرين

كانت قضية الباكستان مهمة مهيأة لقيادة جناح ، ولم
تكن مهمة ممهدة له أو لغيره من القادة

كانت عظيمة المصاعب كأعظم ما تكون المصاعب في إقامة
الدول ، وغاية ما هنالك انها المصاعب التي وجدت صاحبها
المستعد لها المقتدر على انجازها ، بما اختص به من ملكات
ومن صفات ، وأهمها الصدق الصراح

كان شعور المسلمين بالحاجة الى الباكستان درجات ،
فليس أصحاب الكثرة في أقاليمهم كأصحاب القلة فيها ..
أصحاب القلة في أقاليمهم أشد حاجة الى الدولة المستقلة ،
ولكنهم سينتقلون من بيئاتهم التي تعاقب عليها آباؤهم
وأجدادهم ، وسينتزعون أنفسهم انتزاعاً من المولد العزيز
ومن مورد الرزق ومن مآلف الصبا والشباب ..

وأصحاب الكثرة في أقاليمهم أقل حاجة الى الدولة
المستقلة ، ولكنهم يعاشرون قلة من البراهمة المتهوسسين
بالعصبية الدينية ، فيلمسون على قرب بوادر النقمة وقلة
الأمان ، ويهمهم أن يخلص لهم ضمان دائم كضمان الباكستان
والمسلمون بعد مذاهب وطوائف : سنيون وشيعة
واماميون واسماعيليون ومن طائفة القادياني أو طائفة
الفرائض أو غير ذلك من طوائف الاثمة والدعاة

وهم على هذا متفاوتون في الغيرة والحماسة ، متباينون في العمل للدولة الجديدة ، يتساءلون على أى أساس تقام ، وإلى أية غاية تهدف ، ومتى يكون البدء بتوطيد الأساس والهدف إلى الغاية

هل تكون دولة مدنية أو دولة الهبة ، وهل تكون كذلك دفعة واحدة أو على تدرج وأناة ؟ وعشائر البادية والجبال ما شأنها ؟ هل تحكم حكما عصريا أو تحكم بنظامها الموروث الذى تتغير الدول ولا يتغير ؟

واللغة - لغة التعليم والعبادة - كانت هى أيضا مشار الخلاف والاشاعة المتناقضة : هل تفرض الاردية وحدها وتلغى البنغالية أو تبقى البنغالية للتعليم والمعاملة فى بعض الجهات وتعم الاردية جميع الجهات

نوازع ودوافع تضطرب فيها العقول والظنون وتتضارب فيها الأمزجة والاهواء ، ولاسيما فى الفوج الأول قبل الاستقرار والطمأنينة وقبل جلاء النيات والغايات

واقترنت هذه العوامل الطبيعية بعوامل أخرى غير طبيعية من تلقيق الدسائس والنفاق، فكانت هناك جماعات اسلامية ظاهرها الخدمة العامة وباطنها خدمة المأجورين للسياسة الاجنبية ، وفرصتها هى هذه الفرصة فى أوائل الحركة بين المتشابهات والمتناقضات ، وبين مواقع التهم ومطامح الاطماع

وعجيب ، أوليس بعجيب على الوجه الذى تختاره ، أن يتعرض خادم الباكستان الاكبر فى معترك هذه الظنون

والنوازع لجريمة اغتيال لم يتعرض لها عدو من أعداء
الباكستان الدخلاء أو الأضلاء في البلاد ، وأن يكون مدبر
اغتياله أحد المدينين له بنعمة الحرية والانقاذ

حدثت هذه المحاولة - محاولة اغتيال جناح - في صيف
سنة ١٩٤٣ والقائد عائد الى بومباي من احدى رحلاته ،
وأذاعت الصحف نبأ عودته وموعده وصوله ، فذهب فتى من
جماعة « خاكسار » يتربص به عند وصوله ، ولم يتمكن من
مقاربتة لاشتداد الزحام في استقباله ، فقصد الى قصره
ساعة الغداء ، وكأنه علم من قبل انها ساعة الراحة لمعظم
الخدم ما عدا القائمين باعداد المائدة للقائد الاعظم وضيوفه ،
فتلقاه بواب القصر بالترحاب كما يتلقى الزوار وقاده الى
الكاتب الخاص الموكل بالاستماع الى من يطلبون المقابلة ،
ودخل جناح المكتب في هذه اللحظة فرأى الفتى وسأل كاتبه
عنه فأبلغه ما سمعه منه وانه يرغب في محادثته لمسألة
هامة . فأمر جناح كاتبه أن يعطيه ورقة يكتب فيها كل
ما يطلبه ويبلغه بعدها عن موعد يلقاه فيه لاتمام حديثه ،
واذا بالشاب يهجم على القائد العام ويهم بأن يطعنه في
صدره بمدية أخرجها من طيات ثيابه ، وتمكن فعلا من
اصابته بجرح غير ذى بال ورفع يده ليتم فعلته فأدركه
البواب قبل أن يعيد الكرة واعتقله وهو يصيح : « دعونى
دعونى . . لست ماجورا . . ان شيخى يأمرنى بقتله . . »
وقد حوكم الفتى وحكم عليه بالسجن خمس سنوات ،
وتبين أنه ينتمى الى تلك الجماعة جماعة خاكسار ، أى جماعة
الارضيين أو الترابيين الذين تسموا بهذا الاسم تواضعا

واظهارا للفقير والمتربة ، ولهم نظام فاشى ونزعة شيوعية ،
ورئيسهم عناية الله المشرقى من خريجى جامعة كمبردج ، انشا
الجماعة فى البنجاب سنة ١٩٣١ وحلت جماعته سنة ١٩٤١
واعتقل كما اعتقل غيره من رؤسائها ، ثم أفرج عنه فى
السنة التالية بمساعى العصابة الاسلامية وشفاعة القائد
الاعظم ، فجوزى على هذه الشفاعة بعد سنة واحدة بتدبير
تلك المؤامرة للقضاء عليه

تلك بعض المصاعب الشعورية او النفسانية التى كان
على القائد العام أن يعالجها ويصرف أذاها فى سبيل تأسيس
الباكستان

والمصاعب المادية فى غنى عن البيان ، لانها تشمل فيما
تشمله تنظيم المواصلات لنقل المهاجرين الى الباكستان
والمهاجرين منها ، واعداد المساكن واعداد الاعمال ومرافق
المعيشة لكل ساكن على حسب صناعته وموطن تلك الصناعة
من الدولة الجديدة ، والانفاق على الدولة من خزانة لا مال
فيها ولا مورد لها بعد من الضريبة او الانتاج أو القروض
الميسورة ، ويكفى فى تقريب هذه الصعوبات الى الازهان
أن نستعيد آراء المعقبين على اقتراح انشاء الباكستان عند
شيوعه وتسامع الناس به فى أقطار العالم لأول مرة ، فقد
كان تعقيبهم جميعا يتلخص فى كلمة واحدة هى كلمة
« مستحيل »

وربما علم جناح من هذه المصاعب ما لم يعلمه غيره ،
وربما كان جناح أولى من غيره بالحكم على المشروع بالاستحالة،
لو كان مجرد العلم كافيا لتقدير الاستحالة ونفض اليدين
من الفكرة منذ اللحظة الأولى

الا أن الأب الذي ينظر الى ابنه المريض بالداء المعضل
الميتوس منه يحكم عليه حكما غير حكم العواد وغير حكم
الاطباء أنفسهم ، وان كانوا من صانعي المعجزات

ان الأب يعرف هنا ما لا يعرفه العواد ولا يعرفه الاطباء :
يعرف ان ابنه يجب أن يعيش ولا يقصر همه على أن يسأل:
هل سيعيش أو لا يعيش ؟

وليس تصويرنا لتقدير المصاعب على هذه الصورة في
نظر القائد الأعظم تصويرا نعتمد فيه على التخيل أو
تشبيهات المجاز

كلا ! ان البرنامج العملي الذي حفظته أقوال القائد العام
ومساعيه وتمهيداته تدل دلالة غير مقصودة على أن كلمة
« الواجب » هي مفتاحه الوحيد الذي يفتح به المغلقات ويقتحم
به السدود ويذل به العقبات

فاذا سأله سائل : هل تذلل هذه المصاعب أو لا تذلل
كان جوابه الأول : هل هناك مجيد من تذليلها ؟ فان كان
تذليلها هو الواجب الوحيد فلتذلل ولتخلق وسائل التذليل
واحدة بعد أخرى حتى تزول المصاعب من الطريق الذي
لا مجيد منه وليس عنه حول ، فانما النكول عن الواجب
هنا أصعب من الهجوم عليه واطراد السير في طريقه على
عجل أو على مهل ، وهل عنه حول أو منه مجيد ؟

حادثة الصحفي الحبير بالقضية الهندية بيغرفلي نيكولاس
صاحب كتاب حكم على الهند فسأله : « ان أعم الاعتراضات
التي توجه اليك من نقادك انك لم توضح الباكستان توضيحا
دقيقا ، وان هناك تفصيلات جمة تتعلق بالدفاع والمرافق

الاقتصادية وطوائف الاقليات أهملتها وتركها عمدا غامضة
مبهمة ٠٠٠ فما قولك في هذه الاعتراضات ؟ وهل يبدو لك
انها من قبيل النقد المنصف المعقول ؟ »

قال جناح : « انها ليست من الانصاف ولا من حسن
الفهم للأمور ، وبخاصة حين تأتي من انجليزى له أية معرفة
بتاريخه . فان ايرلندة حين فصلت جاءت الوثيقة التي
دونت قرار فصلها في نحو عشرة أسطر ، نعم عشرة أسطر
من الحروف المطبوعة لتسوية نزاع معقد لا يصدق العقل
مبلغ تعقيده ، قد سمم السياسة البريطانية عدة قرون ،
وتركت جميع تفصيلاته للمستقبل ، وما أقدر المستقبل من
فيصل جدير بالاعجاب في كثير من الاوقات ! وها أنا ذا
قد أعطيت العالم من البيان ما يزيد كثيرا على عشرة أسطر
لبيان المبادئ والوقائع التي تدور عليها قضية الباكستان ،
ولكنه من وراء طاقة الانسان كائنا من كان أن يدون في
الورق تفصيلا سابقا لا يخرم منه حرف عند تنفيذه ، ونعلم
عدا هذا من تاريخ الهند أن هذا التفصيل لا ضرورة له على
الاطلاق ، فأين كان هذا التفصيل حين تقرر فصل بورما
في مؤتمر المائدة المستديرة ؟ وأين كان هذا التفصيل حين
فصلت السند من بومباي ؟ لم يكن له وجود ، لم يوجد
ولم تكن ثمة حاجة لأن يوجد ، وكان المبدأ المهم في القضية
ان قاعدة الانفصال تقرر ، ويأتي كل شيء بعد ذلك في
حينه »

قال بيقرلى : « كيف تصور « الأمر المهم » في قضية
الباكستان ؟ »

قال : « فى خمس كلمات ٠٠ ان المسلمين أمة ٠٠ فان سلمت هذا وجب ان تسلم تسليم الرجل الأمين ان حق الباكستان قائم ، ووجب أن تسلمه ولو كانت مصاعبها مائة ضعف المصاعب الماثلة فى الواقع »

قال الصحفى : « أنتظر الى الناحية الدينية حين تقول ان الباكستان أمة ؟ »

قال جناح : « بعض النظر لا كله ٠٠ ولتذكر ان الاسلام ليس عقيدة وحسب ، بل هو آداب سلوك عملية واقعية ، واننى لا أنظر الى الناحية الحيوية ، والى كل شىء ذى بال فى حياة الانسان ، اننى لا أنظر الى تاريخنا والى أبطالنا والى فنوننا ، والى عمائرنا وآثارنا وموسيقانا وقوانيننا وفقه شريعتنا »

وسكت الصحفى يكتب ، وتركه القائد يكتب لحظة ثم قال : « فى جميع هذه الشؤون نظرتنا لا تختلف وحسب بل تناقض النظرة البرهمية . نحن أناس مختلفون . مختلفون فى الاسماء والملابس والأطعمة ، مختلفون فى الحياة الاقتصادية وفى مثل التربية والتعليم ، وفى معاملتنا للنساء ، وفى مسلكنا مع الحيوان ٠٠٠ وخذ اليك مسألة البقرة الأبدية ٠٠٠ نحن نأكلها والبراهمة يعبدونها ، وقد يخطر للانجليزى أن هذه « العبادة » تقليد من التقاليد التى تصلح للفرجة ، وبقية من تراث الايام الخالية . لكن الأمر على نقيض ذلك . ومنذ أيام فقط أصبحت مشكلة البقرة فى مدينتنا هذه احدى مشاكل الأمن العام ٠٠٠ وما مشكلة البقرة بعد الا واحدة من الوف »

ثم صمت لحظة ونظر الى الصحفي سائلا : « ماذا كتبت؟ »

قال : « انما كتبت « ان المسلمين أمة ٠٠ »

قال : « وأنت على يقين من صدقها ؟ »

قال : « نعم ! »

فقال جناح وعلى فمه ابتسامة : « فأى سؤال بعدها

تسال ؟ »

قال الصحفي : « أول سؤال اقتصادى : فهل المسلمون
عسيون أن يصبحوا أغنى أو أفقر بعد قيام باكستان ؟
وهل فى نيتكم فرض مكوس بينكم وبين أرجاء الهند
الآخري ؟ »

وأعرض جناح عن الجواب ليسال كما قال على سبيل
التغيير : « هبهم سالوك ماذا تفضل : انجلترا غنية فى
حكم الجرمان أو انجلترا فقيرة فى حكم نفسها ؟ »

فاجاب الصحفي قائلا ومعرضا أيضا عن الجواب : « قلما
أحتاج الى جواب »

فعاد جناح يقول : « أولست ترى اذن أن سؤالك سمل
مرجوع ؟ » ان المثل الأعلى أمامنا أرفع من المتاع الشخصى
والراحة الموقوتة ، والمسلمون أمة مخشوشنة دهب صابرة ،
فاذا كان قيام باكستان وشيكا أن يزيدهم قليلا من الدأب
والنحافة فلا شكاية ، ولكن ما بالها تزيدهم دأبا ونحافة ؟
وماذا هناك مما يوحى الظن بأن هبة القومية ستوقر كواهل
الامة من جانب الثروة الاقتصادية ؟ ان أمة مستقلة عدتها
نحو مائة مليون ، قلما يقع فى الحاطر ، وان كانوا عاجلا

لا يملكون كفايتهم ولا يحسنون الصناعة ، انهم يصيرون
الى حال أسوأ من حالهم وهم مبعثرون غير منظمين تحت
سيادة مائتين وخمسين مليوناً يستغلونهم ، وانه لما يعينني
تصوراً أن يقال ان الباكستان استحالة اقتصادية بعد
معاهدة فرساي ، فان الأدمغة الكبار التي قطعت أوربة
قطعا مشتتة مزرية بين حدود ملفقة متقاطعة لهي آخر من
يحق له أن يكلمنا في مصاعب الاقتصاد وهي لدينا أيسر
من ذلك . . .

انها اذن مهمة غير سهلة وغير ممهدة ، وليست هي كذلك
في رأى صاحبها ولا في رأى أحد من المتطالعين اليها من
داخلها أو خارجها ، ولكن الباكستان ينبغي أن توجد ولو
كانت المصاعب التي تعترضها مائة ضعف مصاعبها ، لان
وجودها واجب لا محيد عنه ، وبهذا المعيار يوازن جناح
بين كفة المصاعب وكفة الواجب . أما سائر ما في الحديث
المتقدم من الموازنات بين الأزمات والحلول في اقامة الدول
الناشئة شرقاً وغرباً فهو آية أخرى على القضية التي
تهيأت لصاحبها وتهيأ للاضطلاع بها على بعدها من السهولة
ومن التمهيد

أسيرة وطفولته

أسرة القائد

أسرته من أصل برهمي ، وقد أسلم أحد أجداده منذ قرن متحولاً من البرهمية الى النحلة الاسماعيلية ، وهي نحلة لها دعاة عاملون ذوو نشاط وذكاء عملوا في الهند الغربية وعلى حدودها منذ ألف سنة ، وكان من دعائهم في تلك البقاع قبل ألف سنة والد الفيلسوف ابن سينا كما هو معلوم

وكانما شاءت الأقدار أن يكون جناح بتاريخه وتاريخ أسرته حجة قائمة على الحقيقة العظمى في تكوين النفس الهندية ، وهي أن الدين قد شغل في هذه النفس مكان كل عاطفة عامة : شغل فيها مكان الوطنية والعصبية والجامعة القومية ، وصبغ فيها الأفكار والأذواق والآداب العملية والنظرية بصبغته ، فهو طبيعة أخرى كالطبيعة التي تركيبها الفطرة في بنية الجسم والضمير

رأينا فيما تقدم كيف كان الزعيمان جناح وغاندي يتقابلان ، أو يتناقضان، في أساليب العمل ودوافع الحركات السياسية وفلسفة الحياة العامة والحياة الشخصية

ويكاد القائل أن يقول : هو التناقض بين الفطرة الآرية والفطرة السامية ، أو هو الاختلاف بين كيان انسان عريق في الهندية ، وانسان عريق في العربية منتقل الى الهند مع

العرب الذين انتقلوا اليها بعد الاسلام
ويكاد القائل أن يقول انها خصائص الأجناس ، وان
المهاتما يعمل في السياسة بسليقة والقائد الأعظم يعمل
فيها بسليقة أخرى

لكنه يرجع الى تاريخ القائد الأعظم فاذا هو برهمي
كالمهاتما في أصوله العريقة ، ويرجع الى ملامح القائد
الأعظم فلا يرى هنديا أقوى منه تمثيلا للسمات الهندية
وامعانا في المحافظة على سحناء السلالة وقسماتها وشماثلها
هندي في الهنديين

واختلفت العقيدة في الأسرة منذ ثلاثة أجيال ، وعاشت
هذه الاجيال الثلاثة بعقيدة جديدة بينها وبين الله وبينها وبين
الناس : تغيرت نظرتها الى الدنيا وما وراءها، وتغيرت عاداتها
في الطعام والكساء ومقاييسها للأعمال والاخلاق، وجاء العرف
الذي لا يقصد ما يصنع ولكنه يصنع ما ليس يصنعه الذين
يطيلون القصد والروية ، فاذا بزعيم المسلمين يسمى «القائد
الأعظم» واذا بزعيم البراهمة يسمى «المهاتما» ٠٠٠ ولا
فارق أصدق ولا أعمق ولا أدق من الفارق بين الزعيمين وبين
الأمتين وبين الثقافتين في عقلية الواحد وعقلية الجماعة

وكانما شاءت الأقدار من جانب آخر أن يكون جناح
بنحلته الدينية صالحا للمهمة السياسية التي تصدى لها
وقادته حوادث زمانه اليها ، فان القدرة على التنظيم وتوجيه
الحركات السياسية قديمة في الاسماعيليين ، وسماحتهم
في الاحاطة بالجمهرة العامة والنخبة المختارة معا قد أصبحت
تقليدا من تقاليدهم التاريخية ، وقد بلغت هذه السماحة

غايتهما في عصر الجامعة الاسلامية والحرية الفكرية ، وبلغت غاية غاياتها في جناح نفسه ، فقد كان يلغى كل تسمية طائفية تطلق على المعاهد العامة ، وقد غير أسماء بعض المعاهد لانها تشير الى فروق بين نحلة ونحلة من النحل الاسلامية ، وجاء انتماؤه الى الاسماعيليين النزاريين - مع هذه السماحة التي تسع الناس جميعا - مرجحا قويا لزعامته ومزيلا للخوف من كثرة الطائفة وانتشارها . فان الاسماعيليين النزاريين قلة صغيرة في الأمة الاسلامية الهندية ، وقد ذكرنا الاطمئنان الى زعيم ينتمى اليها باطمئنان الأهم في أوربة الى اختيار ملوكها من أسر الممالك الصغيرة ، لان هذا الاختيار امان من غلبة الاقوياء على الضعفاء ، وكذلك أحس المسلمون - على غير قصد ولا تدبير - انهم يطمئنون الى زعامة رجل يعول على الجميع ولا يستأثر بسطان طائفته على مقاليد الجاه والسطوة ، فهو أهل لخدمة الجميع بتأييد الجميع

طفولته

نشأ جناح في أسرة برهمية أسلمت في القرن الماضي ، وانتقل جده بعد فتنة سنة ١٨٥٧ بخمس سنوات الى بومباي ثم كراتشي ، وكان أبوه « بونجا جنه » ثاني أبناء أبيه يعمل في شركتهم التجارية واحدا من مديريها الذين يشتركون في ادارتها لاتساع نطاقها ورواج أعمالها ، وكان معظم أعمالها في تصدير الجلود وملحقاتها ثم لحق بها الكساد من جراء القلاقل السياسية والازمات الاقتصادية قبل أن يتم جناح تعليمه في انجلترا حوالي سنة ١٨٩٧ و « محمد علي » هو الولد الثاني لأبيه ، ولد في الخامس

والعشرين من شهر ديسمبر سنة ١٨٧٦ ، وتعلم دروسه الأولى في مكتب من مكاتب التعليم بكراتشي ، ثم انتقل الى بومباي لاتمام تعليمه في مدرستها الابتدائية وتدرج منها الى مدرستها العالية التابعة للجماعة الاسلامية ، ثم عاد الى كراتشي لينتظم في مدرسة السند العليا ، وحصل على الاجازة التي ترشحه للتعليم الجامعي من معهد البعثة الكنسية المسيحية سنة ١٨٩٦ وهو في السادسة عشرة من عمره

والاخبار المحفوظة عن الطفل « محمد علي » جد قليلة، ولا يروى عن أيامه في المدارس الاولى والثانوية غير النزر اليسير ، ولكنه على نزارته يدل على طفولة نجبية مجتهدة ، وعلى ذكاء المعنى يلفت النظر ويوحى الى أصدقاء أبيه من الطبقة الحاكمة انه أهل للتفوق في التعليم العالي وان مدارس الهند في ذلك الزمن لا تكفي لتثقيف ملكاته واستيفاء تعليمه ، فقد كان أبوه يعده للعمل التجاري ويقنع بنصيب الشاب الهندي من العام في المدرسة الثانوية ثم تدريجه بعد ذلك على مصاحبته في التجارة الى أن يستقل برأس مال يغنيه أو يشاركه في ادارة تجارته الواسعة ، ولكن صديقه السير فردريك جرافت لمح في الصبى الناشئ مخايل ذكاء نادر يرشحه للمراكز العليا فنصح لأبيه غير مرة أن يرسله الى إحدى الجامعات الامريكية ، واختار له دراسة الحقوق والعلوم الادارية لانها هي « المعرفة » اللازمة لمناصب الرئاسة في الحكومة

وفي كتاب « نوادر مشرقية في حياة القائد الأعظم »

لمؤلفه الاستاذ صديقي قصة رواها عن سيدة من كبار سيدات الأسرة تنبىء عن ولع شديد بالقراءة واستيعاب الكتب غير المدرسية شهدت بوادره فى الطفل جناح ولما يبلغ الثامنة من عمره

قال : « زارت السيدة منزلهم بعد غيبة طويلة ، ولم تمض عليها غير أيام قليلة حتى لحظت ان النور يتأخر بالليل فى حجرة الاطفال ، فخطر لها ان الصغار ناموا قبل أن يطفئوا المصباح ، وقصدت الى الحجرة لاطفائه ، ولكنها وجدت وهى تخطو الى داخل الحجرة ما لم يكن لها فى حساب : وجدت أخوة جناح وأخته نياما وهو جالس مستغرق فى القراءة ، وأدهشها أنه فى مثل تلك السن الباكرة يفوص فى مطالعته حتى لا يتنبه لدخولها ، وسكتت لحظة ثم بدا لها أن تفتحه الحديث ، فقالت مدللة : ماذا يسهرك الى هذه الساعة يا جنيح ؟

فراعها أن يرد عليها الصغير جناح قائلا : « سيدتى .. أرجوك أن تخفضى صوتك قليلا »
قالت : « لمه ؟ »

قال : « ان أخوتى مستغرقون فى النوم ولا أحب أن أقلقهم »

وكان هو يتكلم هامسا حتى اضطرت السيدة أن تتقدم خطوات أخرى الى المائدة التى كان يجلس عليها لتسمع كلماته ، وسألته : « ما بالك تحجب نصف المصباح ؟ »

قال : « اننى أفعل ذلك دائما لا بعد الشجاع عن أعين الصغار »

قالت السيدة : « اتعلم كم الساعة الآن ؟ »
قال : « نعم يا سيدتى ، ولكن السهر الى هذه الساعة
مألوف عندى »

قالت : « أولا تكفيك ساعات النهار للمطالعة ؟ »
قال : « كلا ! بل أنا مع قراءتى بالليل لا أجد الوقت
كافيا لمطالعة الكتب التى أريد الاطلاع عليها، وأحسب اننى
لن أصبح شيئا مذكورا فى الدنيا بغير القراءة »
قالت : « والى متى تريد أن تواصل السهر ؟ العلك تنوى
أن تسهر الى الصباح ؟ »
قال : « كلا يا سيدتى !.. انما هى ساعة أخرى ثم انام »



ان هذه القصة جديرة بطفولة جناح ، ومنها نعلم اصالة
الكياسة والأدب فى طبعه ، ونعرف ما وراء عارضته القوية
التي كانت تسعفه فى الاستشهاد بالكلمة الملائمة لساعتها،
والتي كانت تمده بالقدرة على التعبير بغير تلجلج ولا انحراف
عن الهدف السريع حيث كان

ان وراء تلك العارضة القوية محصولا غزيرا من المطالعة
والاستظهار ، ووراء الرجولة التي اشتهرت بالكياسة الى
أخريات أيام الشيخوخة ، طفولة شبت على الكياسة الأصبيلة
فى الطباع : كياسة المبالاة الحقة بشعور الآخرين والحرص
الشديد من الأيذاء والإساءة ، لا مجرد الكياسة فى الزى
والحركة والإشارة ، وهى على الأبعد الأقصى كياسة ثياب

وما يعلم من أخبار تعليمه في شبابه يعزز هذا النزر
اليسير الذي روى عن طفولته الباكرة ، سواء في أدب
الاطلاع أو أدب الاجتماع



حياة العامة

المرحلة الأولى

تعددت نظم التربية التي تفتح عليها ذهن جناح الصغير قبل حصوله على اجازة التعليم الثانوى فى السادسة عشرة من عمره

تعلم فى مكتب اولى من المكاتب التى تتابع النظام المألوف فى تعليم الصغار فى الشرق منذ عشرات القرون ، ثم تعلم فى مدرسة حديثة تابعة لجماعة اسلامية ، ثم تعلم فى مدرسة حديثة تابعة لجماعة مسيحية ، ثم تعلم فى الجامعات الانجليزية وتلقى خارج الجامعات ما يتلقاه الشاب فى ذلك العصر من المعارف العامة الميسرة لمن يختلفون على الاندية واصحاب الآراء

وهذا التباين فى نظم التعليم يضر بعقل الطفل اذا تناقضت النظم وتضاربت ومحا بعضها ما يثبتته البعض الآخر ، ولكنه يفيدده اذا تنوع فى غير تناقض وتضارب ، وقد يعود الطفل ان ينظر مبكرا الى تعدد الجوانب وتباين وجهات النظر ، ولا سيما الطفل الذكى الموهوب المطبوع على حب المعرفة والتوسع فى الاطلاع

وقد كان جناح محبا للمعرفة متوسعا فى الاطلاع منذ طفولته الأولى كما علمنا من بعض اخباره فى نحو الثامنة من عمره ، الا ان هذه الاخبار لم تذكر لنا موضوعاته التى كان

يفرم بمطالعتها في تلك السن الغضة الباكرة ، ولكنها على الأرجح من غير القصص وكتب التسلية الصببانية ، لأن الطفل الذى يطمح الى أن يكون شيئا فى الدنيا كما روت عنه قريبتة الكبيرة لا يتوهم أن كتب التسلية عون له على هذا الطموح ، ولا نحسب أن اللغة الكوجراتية فى أواخر القرن التاسع عشر كانت تشتمل على زاد من القصص وكتب التسلية يحسب فيها حساب الاطفال الصغار

على أن موضوعاته التى أولع بها فى انجلترا قد تنبىء عن الموضوعات التى كان يجنح اليها بتفكيره وميول نفسه منذ طفولته الأولى ، وأوفر هذه الموضوعات نصيبا من اقباله وعنايته دروس القانون والادب ومراجع التاريخ من ناحيته السياسية على الخصوص

كان يتعلم القانون رغبة واستعدادا لا لمجرد التوسل به الى مناصب القضاء والإدارة ، وكان ذهنه من أذهان الفقه والمحاماة والفصاحة الخطابية طبعا وفطرة لا تعلما ومراسا بالصناعة

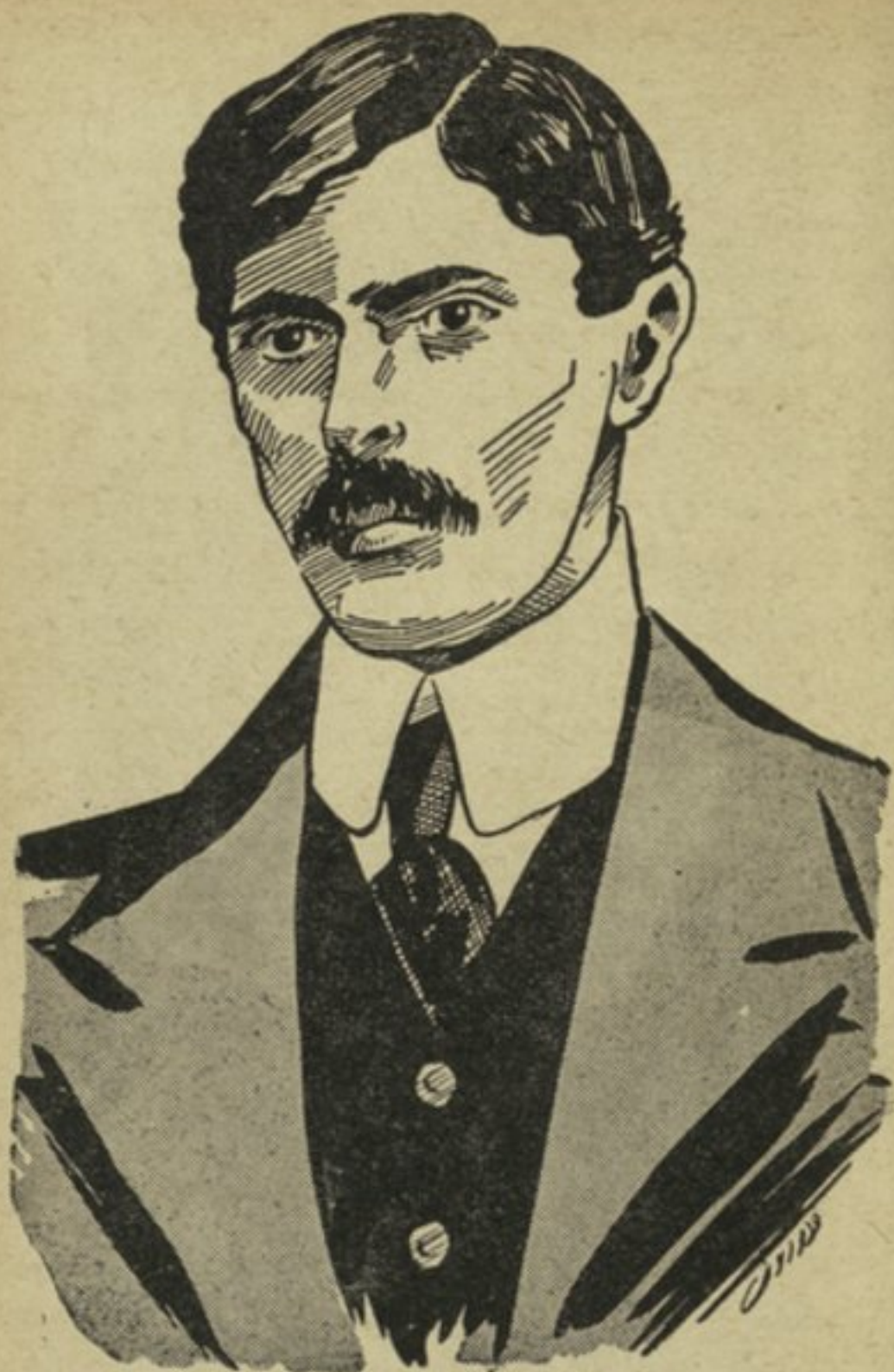
وكان غرامه بالادب شغلا شاغلا يكاد أن يتفرغ له لولا قدرته على تنظيم دراسته وتقسيم وقته ، فاشترك فى ناد يدرس أعضاؤه روايات شكسبير قراءة وشرحا وتمثيلا ، ومثل بعض الشخصيات فى رواياته التاريخية وغير التاريخية وراض لسانه وحركاته على الإلقاء المسرحى حتى لزمته هذه العادة فى مرافعاته وخطبه ، فلو حظ عليه أنه يسترسل فى الإلقاء الفنى على غير انتباه منه ، وكان خصومه يفتنمون هذه الفرصة فينعتونه بوصف الممثل قدحا فى آرائه

السياسية أو حججه القانونية ، وهو مطعن سهل رخيص
قد تسوغه اشارات الرجل وحرركاته بحكم العادة ، ولكن
ليس في اقواله ومعانيه جميعا ما يسوغ ذلك المطعن لمن
ينصفون في النقد والاتهام

وقد لزمته عادة الالتقاء الفنى من اوائل ايامه في الحياة
النيابية الى اخريات ايامه في الزعامة واقامة الدولة ، وافحم
مرة احد الأعضاء الانجليز في الجمعية التشريعية اثناء
المناقشة الحامية على الاتفاق التجارى بين بريطانيا العظمى
والهند ، فقال العضو الانجليزى - واسمه السير جيمس -
ان الاستاذ جناحا كوكب لامع : كوكب يشبه جريتا جاربو
في ملكاته التمثيلية ، فاخذ جناح يكرر آراء السير جيمس
الفاجعة ووعيده بهجوم اليابان واحجام الدولة البريطانية
ومستعمراتها عن معاملة الاسواق الهندية ، وقال : لعل
صاحبنا لا يحسن كلاما غير الانذار بالفواجع . انها ملكة
جديرة بممثلة الماسى مارلين ديتريش . . . وان هذه الفاجعة
نفسها لمأساة !

وكان هذا في سنة ١٩٣٩ اى بعد عودته من البلاد
الانجليزية بأكثر من أربعين سنة

ولم يكن القاؤه الفنى كل ما بقى من عاداته منذ دراسة
الادب والاندماج فى الجو الشكسبيرى أو جو الشعر المسرحى
على الاجمال ، بل كان عرض التاريخ عرضا حيا احد الفوائد
الفكرية والنفسية التى غنمتها قريحته اليقظى من ادب
شكسبير ، وكانت سرعة الشاهد الادبى على لسانه تارة من
كلام شكسبير وتارة من كلام بروننج وزملائه فى عصره



محمد علی جناح فی شبابه

احدى الفوائد التى تصلح لمواقف الخطابة والمساجلة ، وكانت فيما عدا ذلك منصرفا حسنا له عن هموم الحياة الخاصة ومزعجات السياسة كلما ضاقت حلقاتها ، وكثيرا ما تضيق وعرف زملاؤه عنه فى لندن انهم اذا بحثوا عنه فلم يجدوه تفقدوه فى مكتبة المتحف البريطانى حيث يجد بغيته من اسفار التاريخ ونسخ المراجع النادرة فى السياسة العصرية والسياسة الغابرة ، وكانت ساعاته فى لندن مقسمة بين الجامعة ومكتبة المتحف ونادى شكسبير وواجبات المجتمع التى لم ينسها قط طول حياته ، ومنها زيارة اخوانه من ابناء الهند واصحابه واصحاب أسرته من الانجليز

وقد وصل الى انجلترا وهو فى السادسة عشرة وعاد منها الى وطنه وهو فى العشرين ، وبدا اتصاله بالحياة العامة فى هذه الفترة على سنته التى نصح بها الطلاب فى مثل سنه بعد اشتهاره والاعتراف بزعامته ، وسنته هى ان الاهتمام بالمريض غير ادعاء القدرة على علاجه ، وان الطالب يستعد لخدمه ويخدم وطنه باستيفاء عدته وخبرته ، ولا يخدمه بتعجل العمل قبل ادائه

وكان اول اتصال له بالحياة العامة نشاطه مع زملائه الطلبة الهنود فى ترشيح شيخ الهنود المقيمين بلندن يومئذ - دادا بهاي ناروجى - لاحدى الدوائر البرلمانية ، وهاجه سخطا قول اللورد سلسبورى للشيخ الهندى انه من السود الملونين . . . مع ان ناروجى كان انصع بشرة من جمهرة الانجليز ، فوقر فى خلده من ذلك اليوم ان الالوان نفسها ، تتغير فى راي المستعمرين اذا بدت على بشرة الشرقيين

وقد كان سخطه على سلسبوري من أسباب اعجابه
 بغلادستون ، وضاعف اعجابه به مناصرته للقضية الايرلندية
 وهى يومئذ قضية متواضعة تقنع بالحكم الذاتى للايرلنديين ،
 ولكنها على هذا التواضع كانت تثير نقمة الدولة البريطانية
 ويحاربها فريق من الأحرار كما تحاربها كثرة المحافظين ،
 ويقول الذين سمعوا خطب جناح أيام الدعوة الى الباكستان
 أنها تذكرهم بخطب غلادستون أيام الدعوة الى « الهوم
 رول » او الحكم الذاتى للايرلنديين الجنوبيين ، فان قيام دولة
 فى شطر من ايرلندا نموذج سابق لقيام دولة الباكستان -
 فى شطر من القارة الهندية - واذا جاز فى الجزيرة الصغيرة
 ان تحتل حكومتين فأصلح من ذلك للتطبيق العملى قيام
 حكومتين تحكم احدهما نحو مائتين وخمسين مليوناً ، وتحكم
 الأخرى نحو تسعين



وتعد هذه المناوشات السياسية اثناء الدراسة بانجلترا
 حادثاً هاماً فى حياة جناح العامة ، لأنها عينت له مدرسة
 السياسة التى يؤمن بصلاحتها لتوجيه وطنه فى تلك الآونة ،
 وهى مدرسة المعتدلين أمثال ناروجى وجوكهيل وفيروز شاه
 واراناد ، وكانت هى المدرسة التى تتوسط فى مسائل العلاقات
 بين الهنود والانجليز وبين البرهميين والمسلمين من الهنود
 وبين التشبث بالقديم والشطط مع الجديد

ولم تقبل طبيعته مبادئ هذه المدرسة « المعتدلة »
 لسهولتها كما توحى صفة الاعتدال أحياناً الى اذهان

المستمعين من بعيد ، فان التوسط بين المذاهب المتطرفة كثيرا ما يسفر عن عداء الجميع واعتزال جميع الأطراف ، ولكنه تقبل مبادئ المدرسة المعتدلة لانه آمن بصلاحتها على وعورة سبيلها وكثرة الشروط التي يتطلبها التصدي لأعبائها وتكاليفها ، وكان امتحانه الأول في سياستها أصر امتحان يعرض للسياسي الناشئ في أول حياته العامة ، وهو موقف الساسة الهنود على تباين آرائهم ونزعاتهم من تقسيم البنغال

كان تقسيم البنغال من معضلات الهند الشائكة التي لا يتأتى الحكم عليها بمقياس واحد ولايسهل على كل سياسي ان يقبلها او يرفضها جملة واحدة ، لأنها نافعة ضارة ، بريئة الظاهر في بعض جوانبها مدخولة الباطن في جوانبها الاخرى

كانت بحق عقدة تحير الباحث فيها من المسلمين خاصة ، وقد يرفضها الهندي البرهمي بغير تردد ولكنها لا تقابل بالرفض في البيئات الاسلامية بهذه السهولة

اما هذه المعضلة فخلاصتها ان اللورد كرزون حاكم الهند يومئذ قرر تقسيم البنغال الى اقليمين لكل منهما ادارة منفصلة عن ادارة الاقليم الآخر ، وكان عدد سكان البنغال نحو سبعين مليوناً من البراهمة والهنود ، يقيم المسلمون في أصقاعه الشرقية ويضطرون الى ربط أعمالهم ومرافقهم بمدينة كلكتا عاصمة الاقليم كله ، وفي ذلك تعطيل لمصالحهم واكراه لهم على اخضاع تلك المصالح لفئة من ذوى اليسار البرهميين المسيطرين على العاصمة وعلى الاصقاع الغربية ،

فاذا انتقلت العاصمة في الاقليم الشرقى الى « دكا » خفت هذه السيطرة وتهيأت للسكان المسلمين فرص الاستقلال بالمرافق التجارية والاقتصادية ، وهكذا كان لورد كرزون يعلل مشروعه في تقسيم الاقليم الكبير

الا ان المسألة ذات وجهين ظاهر وباطن ، وهذا هو ظاهرها المعقول . اما باطنها المستور فهو الانتقام من ذوى اليسار الذين كانوا يؤيدون في ذلك العهد حركة الاستقلال والمطالبة بالحكومة الذاتية ويمدون بها بالمال ويتعهدونها بالتشجيع والتحريض ، وهو عدا هذا ضربة مصوبة الى الوحدة الوطنية بين البرهمنيين والمسلمين ، ومثار للشقاق الدائم بين الفريقين في البنغال يتبعه لا محالة شقاق دائم في سائر الاقاليم

هذا هو الامتحان الاول الذى امتحن به جناح في مدرسته السياسية ، وهى مدرسة المعتدلين ، وانه لامتحان عسير ، اشبه ما يكون بالامتحان الذى زعموا ان القوى الخفية من المردة والجان تختبر به عزيمة الولى حين يريد السيطرة عليها والاحتفاظ بالاسم الاعظم الذى يروضها على الطاعة ، وقد يكون فيه الهلاك . . . وقد تكون فيه السيادة والنجاة

كان هذا في سنة ١٩٠٥ بعد عودة جناح من انجلترا بتسع سنوات ، وكان تقسيم البنغال لعبة بارعة لم يحسب المستعمرون انها سوف تصبح بعد اربعين سنة مبدءا حاسما يقضى على سلطانهم في قسمين اكبر من قسمى البنغال وأخطر ، وهما دولة الهند ودولة باكستان

ومن عبر التاريخ وتقلبات اطواره ان بطل التقسيم

الكبير كان اشد المعارضين لتقسيم البنغال على الرغم من اغتباط المسلمين به واعتبارهم اياه خيرا سيق اليهم دون ان يسعوا اليه.

لقد ظن حكام الهند يومئذ ان الغنيمة اعظم من ان ترفض وان تكشف ما وراءها من مآرب الاستعمار ، فلم يكثرثوا لاختفاء هذه المآرب وراح رؤساؤهم يعلنونها وراحت صحيفتهم ال « ستيتسمان » لسان حالهم في العاصمة تبسطها بغير موارد ، فقالت كما روى شلفنكار Shelvankar. في كتابه عن مشكلة الهند : « ان المقصود بها هو تربية قوة اسلامية في شرق البنغال يرجى ان تكبح تلك القوة المتزايدة في زمرة البرهميين المتعلمين »

ولكن جناحا كان اقوى شكيمة من ان تقتاده الغنيمة صاغرا ، وايقظ بصرا من ان يتناول الطعام من يد الصياد المائل امامه علانية بالمرصاد . وكانما كان يلحظ بعين الغيب عاقبة هذا التقسيم ، وان الصياد سيخلق منه طعاما آخر ويرجع عن التقسيم بعد حين ليجعل من الضغن ضغنين ومن السخط الجديد مسعرا يلعب به نيران السخط القديم

على ان جناحا لم يخسر ثقة المسلمين بثباته على سياسة المدرسة المعتدلة في معضلة البنغال ، لانهم اعتقدوا اخلاصه وفهموا موقفه على حقيقته وادركوا انه نظر فيه الى غاية بعيدة : وهي احباط دسياسة استعمارية تنقلب منافعها اضرارا مطبقة تحقيق بالجميع ، فانتخبوه في سنة ١٩٠٩ عضوا للمجلس التشريعي الامبراطوري عن بومباي ، وقابل هذه الثقة بالمشاورة على مبدا الوحدة الهندية والدفاع عن

حقوق الهنود حيث كانوا وعلى اختلاف العقائد التي يدينون بها داخل الهند أو خارجها ، وفي إحدى مناقشات هذا المجلس وقعت المشادة المشهورة بينه وبين اللورد منتو حاكم الهند ، لانه وصف معاملة حكومة الناطل للهنود المقيمين فيها بالفظاعة ، ونبهه الحاكم الى أن هذه الكلمة ليست من الكلمات البرلمانية التي تسمع من أعضاء المجالس عند الكلام على حكومة أخرى ، فلم يشأ جناح أن يتراجع ولم يشأ كذلك أن يكابر في أدب من آداب التقاليد الرسمية ، ومضى قائلاً : « نعم يا لورد . . . وارانى انبعث الى استخدام لهجة اقوى لو اننى طاوعت نفسى ، ولكننى الاحظ دستور هذا المجلس ولا احب أن اتخطاه لمحة عين ، الا اننى اقول ان المعاملة التي ابتلى بها الهنود هناك اقسى ما يمكن أن يتخيله المتخيل ، وان الشعور الذي تقابل به في الهند شعور اتفاق واجماع . . . »

وبعد انتخابه للمجلس التشريعى الامبراطورى بسنة وقع عليه الاختيار للوساطة بين نواب البرهمنيين ونواب المسلمين الذين اجتمعوا في « الله اباد » للتشاور في قواعد الوحدة

ثم عرضت مسألة الوقف في سنة ١٩١٣ ولم يرض فيها عن مسلك البرهمنيين ولا عن مسلك الحكومة الهندية ، وكلف نفسه دراسة هذه المسألة من الوجهة الفقهية ومن الوجهة الاجتماعية ، وخامره شك منذ تلك السنة في امكان خدمة الهنود جميعا باقتصار عمله على المؤتمر ، فاستجاب رجاء مولانا محمد على الرامبورى والسير السيد وزير حسن وقبل

الانضمام الى العصبة الاسلامية على شريطة التوحيد بين
سياسة الهيئتين

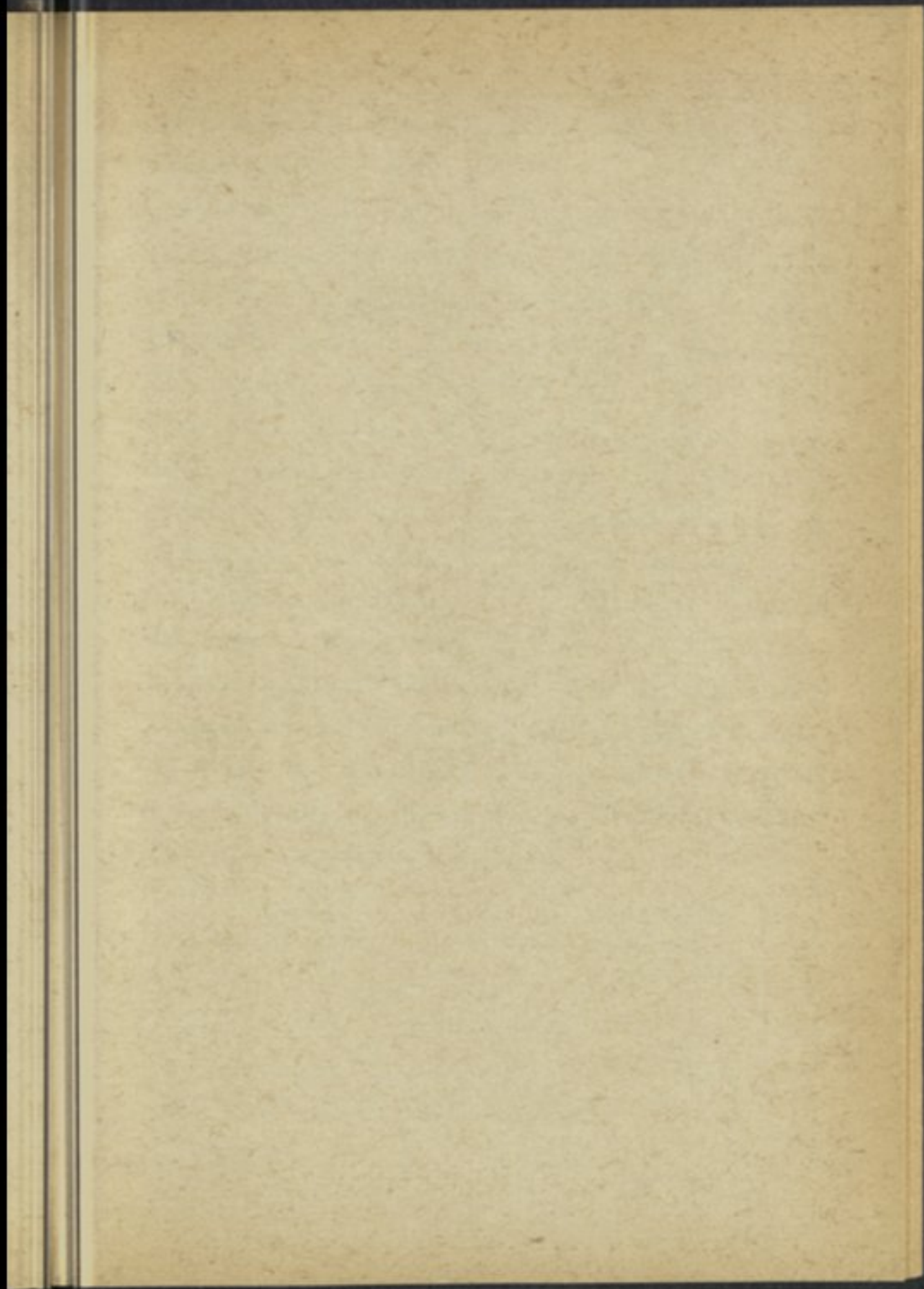
وكان في تلك السنة قد ندب للسفر الى لندن لشرح
المطالب الهندية ، فاشتغل في هذه الرحلة بانشاء جماعة
مركزية بالعاصمة الانجليزية لرعاية الطلبة الهنود ، وندب
بعد عودته مرة اخرى للسفر الى العاصمة الانجليزية والنيابة
عن المؤتمر في عرض مقترحاته التي يبنى عليها انتخاب
الأعضاء الهنود في مجلس وزارة الهند ، ثم عمل من سنة
١٩١٥ الى سنة ١٩٢٠ على عقد مجلس المؤتمر ومجلس
العصبة الاسلامية في موعد واحد ومكان واحد ، لانه - وهو
عضو في الهيئتين - كان يقدر انه مستطيع ان يتدارك كل
بادرة خلاف قبل ان تتشعب وتستعصى على التوفيق

الا ان سنة ١٩١٥ في الواقع قد دخلت بالسياسة الهندية
عامة في طور غير طورها الذي استقامت عليه الى ما قبل
الحرب العالمية الاولى ، ومرجع هذا التحول الى حادث
شخصي وحادث عالمي في وقت واحد

فالحادث الشخصي هو وفاة الزعيم جوكهيل الذي كان
مناط الثقة بقضية الوحدة عند الجميع ، والحادث العالمي هو
شيوع الكلام عن حقوق الأمم المحكومة أثناء الحرب العالمية
وبعدها ، فقد كانت السلطة العظمى او السلطة العليا كلها
في ايدى الحكام الانجليز قبل نشوب الحرب العالمية ، فكان
الاتفاق على مكافحتها غير عسير وكان التنازع على الحقوق
التي لا وجود لها امرا من الأمور التي لا تلجىء الضرورات
العاجلة الى حلها والبت فيها ، فلما بدا البحث في تنظيم

الحقوق الوطنية بدأ البحث في ضمانات تلك الحقوق ، وبدأ
التشدد هنا والحذر هناك

ولهذا يمكن أن يقال أن المرحلة الأولى في حياة جناح العامة
قد انتهت سنة ١٩١٥ ، وأن اليقين بإمكان العمل على خدمة
الهنود جميعا في هيئة واحدة هي هيئة المؤتمر قد تزعزع
منذ تلك السنة ، ثم نشأت المرحلة الثانية التي انعقدت فيها
النيات والعزائم على استقلال باكستان ، ولكنها لم تنشأ
دفعة واحدة منذ الخطوة الأولى ، فقد بقى جناح بين الحريين
العالميتين يحاول التوسط على عادته في « المدرسة المعتدلة »
ويعتقد أن خدمة الهند جميعا مستطاعة بالتوفيق بين
الهيئتين ، وأن الاتفاق على الضمانات المتبادلة يرضى
البرهميين ويرضى المسلمين ، ولكن الحرب العالمية
الثانية قد أوشكت أن تقضى على البقية الباقية من سلطان
الاستعمار وأن تقيم الحكم الهندي في مكانه على مدى سنوات
معدودات ، فتحول البحث من الاتفاق على مقاومة المستعمر
الى الاتفاق على قواعد الحكم الوطنى و ضماناته ، فتبين مع
الزمن أن الاتفاق على الفروض أيسر من الاتفاق على الحقيقة،
كلما اقتربت من الواقع المائل للعيان



الثقة

صفة لا غنى عنها

الصفات التي لا بد منها لنجاح الزعماء كثيرة تتنوع على حسب القضايا التي يخدمونها ، وعلى حسب الوسائل التي تلائم كل قضية في أوانها

وقد تتناقض هذه الصفات حتى يصبح النافع منها في قضية ضارا في قضية أخرى، وحتى يكون منها ما هو قرين للخذلان اذا اختلفت الوسائل والبيئات

ولكن صفة واحدة من صفات النجاح لا غنى عنها في جميع الزعماء ، وفي جميع القضايا ، وفي جميع الاوقات ، ومع جميع الوسائل ، وعلى جميع الفروض تلك هي الثقة !

ثقة الزعيم بنفسه ، وثقة الناس به ، وبغير هذه الثقة في نفس الزعيم وفي نفوس الناس لا تنجح قضية من القضايا الكبرى ، الا أن يكون النجاح مصادفة لا محل فيها للتدبير ولا للتقدير

ثقة الزعيم بنفسه لازمة ، لان فاقد الشيء لا يعطيه وثقة الناس بالزعيم لازمة ، والا لم يسلموه حاضرهم ومستقبلهم ، ولم يضعوا بين يديه مصالحهم وآمالهم، وكثيرا ما تكون الآمال اعز على أصحابها من المصالح ، وكثيرا ما يبذل الناس المصلحة المضمونة ويضنون بالآمل المحفوف

بالشكوك والمخاوف ، بل تكون الشكوك والمخاوف أدعى الى
الضن به والحرص عليه والبحث عن الزعيم الذى يمحص لهم
الامل فيخليه من الشك والخوف

لابد من ثقة بالنفس فى الزعيم ..

ولابد من ثقة بالزعيم فى نفوس أنصاره ومؤيديه ..
وقد كانت « الثقة » بعنصريها صفة من صفات القائد
الأعظم المفروغ منها ، الغنية بنفسها عن براهينها وقرائنها

هل كان جناح يثق بنفسه ؟ ..

هل كان محل الثقة من أنصاره ومؤيديه ؟ ..

لم يسأل أحد قط هذا السؤال ، ولم يشعر أحد قط
بالحاجة الى هذا السؤال ، لانه كان أشبه بسؤال السائل :
هل فى البحر المحيط ماء ؟ وهل فى أفلاك السماء نجوم ؟
وهل فى الشمس نور ؟ وهل فى القمر ضياء ؟

بديهية من البديهيات .. بل أكثر من بديهية

واقع من الوقائع من رآه علم به علما غنيا عن التفسير
وليست ثقة الانسان بنفسه قرارا يتخذه فى ضميره بعد
مداولة ومشاورة ، ولكنها شىء راسخ فى قرار الوجدان على
الرغم من كل مداولة ومشاورة ، وشىء لا يمنحه الانسان
نفسه بأسباب وقرائن ، ولكن يتلقاه من خالقه كما يتلقى
نفسه ، فهما جوهر واحد تتعدد أعراضه للناظرين

ثقته بنفسه

كانت ثقة جناح بنفسه جزءا من نفسه ، وقوة لا فكاك
لها من طبائعه وعاداته

وكانت فيه كل لوازم هذه الصفة على أتمها : كرامة ،
واستقلال بالرأى ، وعزيمة لا تنثنى عما يريد ، متى عرف
ما يريد

كان منظره يوحي الى الناظر باحترامه ، وكان هو يؤمن
فى قرارة نفسه بأن هذا الاحترام حق له وأكثر من حق :
واقع مفروغ منه بغير كلام

وعرف جناح وعرف أنه رجل ذو كرامة فى وقت واحد
عرف النائب العام مكفرسون هذه الكرامة فى المحامى
الناشئ منذ النظرة الأولى ، فخصه بكرامة لم يظفر بها
هندي قط من قبله ، وهى اشراكه فى مكتبته القانونية
يدخل اليها حين يشاء ويأخذ من مراجعها ما يشاء

وعرفها القضاة الانجليز، وقلما يعترف المستعمر صاحب
السلطان بكرامة رجل من المحكومين وان عرفها ، فقضى
أيامه الطوال فى المحاماة موفور الكرامة عند القضاة وذوى
الرئاسة فى المحاكم ومجالس التشريع

ومن خلألق بعض الناس أن يتجاهلوا الكرامة احيانا لانهم
يعلمونها ويضيقون ذرعا بعلمها ، لا لانهم يجهلونها أو يغفلون
عنها

من خلألق اللؤماء انهم يضيقون ذرعا بكرامة الكرماء
وينتحلون المعاذير الواهية للغض منها ويفبطون انفسهم
بالاجتراء عليها ، كلما أتاحت لهم فرصة اجتراء

وتعرض جناح لهذا الخلق غير مرة فى حياته القضائية ،
وحياته السياسية ، فسلك فى جميع هذه المرات بداهة
ما ينبغى أن يسلكه ، غير مكترث بما يكون

اشتهر رئيس محكمة انجليزى بالفطرسية والولع بالتبكييت
والغضب فى موجب وغير موجب ، ومثل جناح امامه فى قضية
كبيرة يهمله ان يكسبها ، وقلما كان اصحاب القضايا يندبونهم
للدفاع عنهم فى غير القضايا الكبار

وخيل للرئيس ان الحسناء تغرى باحتمال المهر وان عظم ،
وان حرص المحامى على القضية خليق ان يجرعه غصة
التبكييت والزجر العنيف ، فاذا هو يقطع جناحا فى مرافعته ،
ولم يكن خاشعا فى هذه المرافعة كما تعود الرئيس المتفطرس
من المحامين « الوطنيين » ان يخشعوا فى حضرته امام هيبتته ،
فيقول له فى غضب وكبرياء :

« اترك تحسبانك تتكلم هنا امام قاض من قضاة الدرجة
الثالثة ؟ »

وفى مثل رجوع الصدى تان الجواب يعود الى الرئيس
المتفطرس بالرد المفحم ، ولم يفرغ القاضى من كلمته حتى كان
جناح يفوه برده كانه كان يتوقع عبارة القاضى بنصها ،
ويقابلها بجوابها الذى يعادلها :

فرفع جناح راسه واثار الى القاضى بصره ، وقال فى لهجة
صارمة : « وهل الذى امامك ايها القاضى محام من الدرجة
الثالثة تخاطبه بمثل هذا الكلام ؟! »

وكانت درسا للقاضى المتفطرس نفعه بعد ذلك مع جناح
ومع غيره من المحامين



وقد تواتر عن جناح بين جميع عارفيه انه مدقق فى
مواعيده ، يحسبها بالدقيقة ويرتبط بها مع صغار الناس

ونكراتهم كما يرتبط بها مع كبارهم وذوى الشهرة فيهم
ولكنه خالف هذه العادة يوماً على اضطرار ، ودخل الى
الجلسة متأخراً عن موعتها ، لأنه كان في انتظار المحامى الآخر
الذى يشاركه في مرافعات القضية

وإذا بالقاضى يغتنمها فرصة ، وينطلق فى درس عنيف
يمليه على جناح فى آداب المحافظة على المواعيد
ويشاء القدر أن يكون المحامى الآخر ابن القاضى نفسه ،
وأن يكون هو علة التأخير الذى استوجب ذلك الدرس من
القاضى الجليل

ويدع جناح قاضيه الجليل بفرغ جمعته لتكون السخرية
بعد ذلك أبلغ وأوقع ، وينتهى القاضى من درسه فيسمع من
جناح : « أن هذه الدروس لو ألتقيت مبكرة فى بيت القاضى لما
سمعناها اليوم فى قاعة الجلسة ، لأن ابن حضرة القاضى هو
الذى تأخر عن موعده ، وهو الذى استحق هذا الدرس بعد
الأوان »

ودعاه حاكم الهند الى مجلس يعقده فى « سملا » للمشاورة
والاتفاق على حل من حلول القضية المعضلة ، فلما وصل الى
المحطة ولم يجد هناك مركبة الحاكم العام فى انتظاره كما
انتظرت المهاتما غاندى من قبل عاد ادراجيه ولم يحفل بما
عسى أن يصنعه الحاكم المتحكم هناك فى الزعماء والشعوب



وقد تعود الناس من الزعماء أن يتملقوا الجماهير وهم
يترفعون عن تمليق الملوك ورؤساء الحكومات

لكن القاعدة هنا لا شذوذ فيها ، فلا تمليق للجماهير ولا متابعة لها في غرورها ولا احتيال على مرضاتها في غير ما يرضى الحق والمصلحة القومية ، ويشهد بذلك خصومه الذين يخلقون المثالب ان لم يجدوها ويهمهم ان يصموه بوصمة الشعوذة السياسية او الاجتماعية لو عرفوا سبيلا الى وصمة يلصقونها به من هذا القبيل

قال « الان كامبل جونسون » في كتابه عن مهمة اللورد مونتابان في القضية الهندية ، وكان مؤلف الكتاب من مديري مكتبه ومن اقرب الناس صلة بزعماء الهندورؤساء الحكومات فيها :

« كان غاندى مطبوعا على غريزة مدهشة تلهمه بث الافكار بين الجماهير تعززها اجتماعاته بهم مباشرة في مجامع الصلوات التي يشجعها كما تعززها مخالطته الواسعة للناس في جميع مناحى الحياة . اما جناح فهو على خلاف ذلك يستمد نفوذه من القيادة على بعد ، فهو لا يتزلف للجماهير ولا يكثر من مخالطتها ، وقد مزج بين التدبير المرن المصقول في حزم ودقة وبين القدرة على الانتفاع من اغلاط خصومه بارادة من حديد ونفاذ الى الغاية الموحدة التي لا ينحرف عنها ، وانه لظاهرة فذة في القضايا الكبرى : نادى بالباكستان وهو في الستين وحققها وهو في السبعين »

سمعنا كثيرا ان الجماهير تؤخذ بالتمليق والخداع وانها تحب التفرير والمفررين ، وراينا كثيرا مصداق هذا الذي سمعناه ، ولكن التاريخ يعرض لنا حيننا بعد حين زعامات تصارح الجماهير ولا تنخلد ، بل زعامات تنجح لانها تبده

الجماهير بالزجر والملامة ، وكانت زعامة جناح واحدة من هذه الزعامات النادرة في القرن العشرين

وصحيح أن قضية الباكستان قضية سبقت الى الهام الجماهير ولم تسبق الى تفكير الساسة وروية الزعماء ، وصحيح انها من اجل ذلك كانت في غنى عن تكلف التمليق والتزويق لاثارة شعور الشعب وتحويله من الشك فيها الى الايمان بصدقها وضرورتها ، ولكنها على كل هذا كان من الممكن ان تؤول الى زعامة رجل يعالجها بالمداينة والمخاتلة ولا تلومه الجماهير على ذلك ، بل نعلها بتتهج به وتمحضه الحب والاعجاب ، فاذا كان لطبيعة القضية فضل في سلامتها من آفة الدعوات الشعبية فلا نكران لفضل الزعيم الذي مارس قيادتها بوحى طبعه واستطاع بالصدق والصراحة ما كان غيره عاجزا عنه بغير التمليق والتزويق

واشرف من الكرامة التي تواجه الافذاذ المسيطرين كرامة تواجه الملايين وعشرات الملايين ، او تواجه الغرائز التي لاتعرف في كثير من الاحيان عقلا غير عقل الطوفان والبركان

استقلال الراى

اما استقلال الراى ، وهو احد الخصال التي تتجلى فيها ثقة جناح بنفسه ، فهو على الدوام صنو الكرامة ، او لعله نسخة نفسانية اخرى للكرامة بعنوان آخر ، فان الرجل الذى يشعر بكرامته يترفع عن مقام الذنب التابع لغيره ويضن بها ان تمحى في غمار الآراء والأهواء ، ويحذر الهوان والضعفة اشد من حذره الغضب والخسارة

فاستقلال جناح برايه غير مستغرب مع عزة نفسه

والاعتداد بكرامته ، ولكنه قد اوتى في مزاجه المطبوع اسبابا
كثيرة من اسباب الاستقلال بالرأى والجرأة على مخالفة الآراء
الشائعة ولو بلغت مبلغ الاجماع

ومن مفارقات العظمة ما هو عجيب يناقض المألوف ،
ولا بد ان تكون العظمة عجيبة مناقضة للمألوف ، ولكن
الاعجب من كل عجب ما يناقض المألوف في بنية الجثمان ،
ويكاد ان يكون بدعا في تركيب الامزجة والاعصاب ، وكل من
عاشر جناحا وتابعه في تفكيره قد فوجيء باعجب الاعاجيب
في هذا الباب

قال « جون جنتر » صاحب الكتب العالمية عن داخل
اوربا وداخل آسيا وداخل أمريكا انه لا يبلغ اذا قال ان
جناحا هو انحف رجل رآه ، وقد رأى العالم المعمور كله
او كاد

ونظرة الى صورة جناح في اية صفحة من صفحات الصور
تؤكد هذه الملاحظة وتسمح لكل قارئ ان يقول ما قاله جنتر
بالقياس الى اهل جيرته وأهل بلاده . فالحق اننا لانذكر اننا
عبرنا في مقابلاتنا ومشاهداتنا برجل انحف من القائد الاعظم
كما راينا في صورته ، وقد راينا منها العشرات بين سن العشرين
وسن السبعين

هذا الرجل النحيف لا بد ان يكون قصبة في مهب الريح
هذه الاعصاب الدقيقة لا بد ان تكون ثورة دائمة واوتارا
تهتز بلمسة من اصبع او نفخة من هواء
هذه البنية النحيلة لا بد ان تذهب بها صيحة وتعود بها

صيحة اخرى ، ولا بد ان تقضى ايامها نهبا مقسما بين الاندفاع
والارتجاع

اهى كذلك فى الواقع ؟

اكان الرجل عصبيا بالمعنى الذى نقصده حين نتكلم عن
العصبين ؟

ان القارىء ليحسب انه يهنىء نفسه بالاعتدال والانصاف
اذا قال بعد تردد : كلا معاذ الله ... هذا رجل قمين ان
يضبط اعصابه ويكبح جماحه نزولا على مطالب الزعامة
ومقتضيات السياسة ... ولكنه لا يكاد يعلم الحقيقة عنه
حتى يعلم ان وصفه بهذه الصفة اجحاف وخطا . فان
اعصابه لم تخنه قط حتى يحتاج الى ضبطها ، ولم يكن ممن
يجمعون فيعوزهم كبح الجماح ، وقد ينتفض غضبا اذا
قو طع او خوطب بما يمس كرامته ويخل بوقاره ، ويفوه
بالعبارة حينئذ فيبدو من كل كلمة فيها انها عبارة لا يقع عليها
رجل غيره الا بعد روية ساعات

لقد كان جناح من اولئك الذين يعنيه الانجليزى حين
يقول عن رجل انه بارد cold ويريد بذلك انه متحفظ
غير متعجل ، ومن اولئك الذين يعنيه الشرقى حين يقول
عن رجل انه رصين مكين

وصفه بذلك الانجليز الذين لا يتطوعون بمدحه والذين
اشتھروا بانهم هم انفسهم « باردون » ، ووصفه بذلك
خاصة تلاميذه الذين يتسابقون الى تعظيمه واغداق
الثناء عليه

تناول العشاء هو وشقيقته فى قصر الحاكم العام ، فلما

خرج سال امين الحاكم العام رئيسه فقال كالمستغيث :
« يا الهى . انه شديد البرود . اننا قضينا معظم الوقت فى
محادثتنا لنذيب الجليد الذى بيننا وبينه »

ولم يشعر تلاميذه واعوانه بحاجة الى نفى هذه الصفة
او بحاجة الى ان تساق فى عرض احاديثهم مساق الاعتذار ،
بل اثبتها بين مناقبه كل من الفوا الكتب او عقدوا الفصول
فى ترجمته وسرد حوادث سيرته من اولئك التلاميذ والاعوان

وتكلم عنه احد عارفيه من الهنود - وهو السير جهانجير
Jehangir فقال : « لا شىء يحيد بجناح عن جادته حيث
يعتقد انه سالك سبيل الحق والاستقامة والانصاف ، وليس
ثمة مقدار من المعارضة ولا من التهديدات والمخاطر يشنيه عن
وجهته . انه رجل ممتلىء بالشجاعة والصلابة ، وان قليلا
من رجال الهند قضوا فى الحياة العامة زمنا اطول من الزمن
الذى قضاه فيها جناح ، ولا ابالى ان اقول انه ما من احد
يجسر على اتهامه بانه كان فى يوم من الايام طالبا لمنفعة او
دوارا مع الغرض ، ومثل هذا الرجل اندر من الندر فى
الحياة العامة »

وقال هندي آخر هو السير شانكام شيتى Chetty
« انه ذو استقلال لامثنوية فيه »

ونوقش هو فى هذه الخصلة فى كلام يشبه العتاب فقال :
« اننى رجل اهتدى فى عملى بتفكير الدم البارد cold blooded
والمنطق والمرانة القضائية »

وتكلم مرة عن العناد والعزيمة فقال انهما صفتان مختلفتان ،
واصاب فى التفرقة بينهما ، لان العناد صفة يستحب الرجوع

عنها . اما الرجوع عن العزيمة فهو عجز ونكول
ولعله كان من اللازم لتصحيح الآراء الشائعة عن «العصبية»
أن ينبغ في العصر زعيم بهذه النخافة المفرطة ، ليفقه الناس
أن الأعصاب قد تكون متينة هادئة كما تكون مرهفة متوفزة ،
وأن الحلم قد يصاحب النخافة ولا يجتمع مع الجسامة في
بنية واحدة ، بل يكون الاضطراب والارتجاج على قدر ما في
البنية من لحوم وشحوم

وظاهر أن هذا الاستقلال الجبار قد كان مفصلا عن
قدرامة كبيرة لا على قدر رجل واحد ، أو هو قد كان مفصلا
على قدر زعامة عظيمة ، وكل ما كان لزعامة عظيمة فهو لامة
كبيرة ، لأن عمل الزعماء عمل أمم يتوقف عليه مصير الملايين
في حاضرها ومستقبلها ، فهو استقلال في الرأي لا يشبهه
كل استقلال

لقد كان هذا « الشخص النحيل » يقف وحده متفردا
برأيه بين مئات من قادة البراهمة والمسلمين ، يزحزحها
ويستطيع أن يزحزحها عاجلا أو آجلا ، ولكن هذه المئات
لاستطيع أن تزحزح ذلك « الشخص النحيل »

لقد كان يخالف الهند كلها ويبرح الهند كلها الى حين .
أما أن يرجع أو ينشئ غير مقتنع ولا طائع فذلك هو المهرب
الذي لا يفهمه ولا يخطر له على بال

ويبدو لنا أننا اذا عرفنا انسانا بالكرامة واستقلال الرأي
وقوة الشكيمة فقد عرفناه بالعزيمة الماضية ، وبخاصة حين
نعرف عنه كذلك أنه منزه عن الغرض ، برىء من المطامع
وقوانين المادة هنا تسعفنا كما تسعفنا خصائص الروح

وسرائر الضمير . فان المادة اذا انطلقت لم تقف الا بموقف يعترضها في طريقها ، وماذا في جناح - ماذا في داخل نفسه القوية - يثنيها عن عزيمتها بعد أعمال الراى في هدوء وبصيرة ؟ لا يثنيها الا المهانة وهى لاتقبل المهانة ، والا الغرض وهى منزهة من الغرض ، والا الضعف وهى من الضعفاء

ثقة الناس به

ان الثقة تعدى ..

وهذه الثقة من جناح بنفسه ورايه هى التى سرت منه الى نفوس الجماهير ، فجلبت اليه ثقة الجماهير ، بغير مساومة وبغير اقتفاء ، وبغير احتيال

نعم ان الثقة تعدى ، وقد أعدت ثقة جناح بنفسه نفوس اتباعه ورعاياه فأسلموه مقادهم ، مطمئنين الى عزمه ، كاطمئنانهم الى حكمته وحكمه

بيد ان هذه الثقة التى امنلات بها نفوس امة كاملة كانت لها فى تلك النفوس دواع غير التى استمدتها من نفس قائدها كانت سمعته العالية بالامانة والاستقامة اكبر دواعيها ، وقد ذاعت سمعته بالامانة والاستقامة منذ ذاعت له سمعة

لبث جناح ثلاث سنوات يشتغل بالمحاماة وينتظر الشهرة على مهل ، ولم يقبل ان يتعجل الشهرة على السنة السماسرة والوسطاء كما يفعل المحامون المبتدئون ، وقد كان فى الشهرة يومئذ رزقه ومنزلته ورزق أهله ، لأنهم كانوا فى ذلك الحين قد فقدوا معظم الثروة التى توارثوها منذ اجيال

ولما تسامع الناس بالمحامى الناشئ شيئا فشيئا علم رجال الدولة ان هاهنا سياسيا مقبلا قد يكون مصدرا

للمتاعب في وقت قريب . اذ جرت العادة عندهم ان المحامي القدير والخطيب اللسن لن يطول به العهد حتى ينقل من الكلام امام القضاء الى الكلام عنى منصة الراى العام ، فأغروه بوظيفة حسنة لم يلبث ان استقال منها وحرّم على نفسه الوظائف بعدها ، لأنها تفرض عليه من القيود ما لا يطبق

وشاع عنه انه لا يقبل قضية باطلة ، وانه لا يرفض قضية عادلة ولو كانت الاسانيد فيها خفية والمتاعب فيها مجهدة ، وجعل دابه ان يأخذ مكافاته كلها سلفا لانه كان ينزل في اول الامر عن مؤخر المكافاة اذا ماطله صاحب القضية والجاه الى المطالبة والمقاضاة . وكسب في بعض مرافعاته قضية كان صاحبها يائسا من كسبها ، وكان من ذوى الثراء الذى يحصى بالملايين ، فأرسل اليه هبة سخية فوق المكافاة المتفق عليها ، فردها اليه

وعرض عليه احد التجار الكبار عشرة آلاف روبية للمرافعة في قضية ، ولاح له من ضخامة الاوراق في ملف القضية انها تستغرق منه وقتا يشغله عن قضاياه الأخرى ، فاعتذر لصاحب القضية ، والح عليه الرجل لشكه في استطاعة محام غير جناح ان يحسن الدفاع عن حقه ، وقال له : راجع الاوراق حتى تنفذ المكافاة ، لك بعد ذلك ان تتوقف عن القراءة ، وكان جناح يقدر المكافاة بالساعات التى تشغلها القضية في ايام العمل ، فلما فرغ من مراجعة الاوراق وجد ان حسابه لايزيد على ثلاثة آلاف وخمسمائة روبية ، فرد الى الرجل المدهول بقية العشرة الآلاف ، وقد كان يراها اقل من جزائه !

ومن الناس من يثبت امام اغراء المال ويضعف امام اغراء اللقب او الوظيفة ، ومنهم من يثبت امام اغراء اللقب والوظيفة ويضعف امام اغراء السطوة والسلطان ، ولكن الفتن النفسية التي امتحن بها الرجل قصدا او على غير قصد قد ابرزت منه معدنا يثبت على كل اغراء ، فلا المال يفتنه ولا اللقب يستهويه ولا السطوة تعجبه او تكبر في نظره ، وربما كانت سطوة تتراعى عليها مطاعم الابطال من اشداء الرجال نودى به « شاهنشاه » الباكستان فامتعض ووقف في سيارته يوبخ الهاتفين له بهذا اللقب ، ويقول لهم ان خير ما يرجوه ان يكون خادم الباكستان ، لاسيد الباكستان وعرضوا عليه ان يولوه رئاسة الدولة مدى الحياة فانكر هذا المبدأ ، واقام القاعدة لمن يليه الا رئاسة مدى الحياة

وعرض عليه حزب المؤتمر قبل ذلك ان يختاروه رئيسا دائما للمؤتمر ، فقال لهم انهم اذا قبلوا آراءه التي يخالفونه فيها ويخالفهم فهو سعيد بان يظل عضوا كغيره من مئات الاعضاء

وكانت الدولة البريطانية تلوح له باللقاب العليا وتنتظر منه ان يطأطأ قليلا ليظفر بها ، ولكنه لم يابه لها قط ولم يزد هذا التلويح الا استرسالا في الخطة التي ارتضاها ، وسنحت للورد ريدنج فرصة عارضة للايحاء بهذا الاغراء الى قرينة القائد الأعظم فسألها : الا تريدان ان تكوني يوما لادى جناح ؟ قالت : لو قبل هو أن يكون سير جناح لكان هذا بيني وبينه علامة الافتراق

ويتحرج الرجل من الشبهات حيث لا موضع للتحرج

لولا الحرص على القدوة الواجبة . فقد وصف له الأطباء في
أخريات أيامه مسكنا صالحا لعلاجه وحذروه من المسكن الذي
يقيم فيه ، ووجد المسكن الصالح في حوزة رجل من ذوى
المرافق الواسعة ، فأبى أن يسكنه بأجرته مخافة أن يكون
مالكه متورطا أو أن يدينه السكن فيه بمعروف يجزيه من
سلطانه في الدولة

لقد كان القائد الأعظم بحق فوق الشبهات والظنون ، ولم
يستطع خصومه أن يظنوا به علة يتعللون بها لتفسير شدته
في مطالبه أو مطالب قومه إلا أن يقولوا عنه أنه رجل واسع
المطامع . ومن نجا بمثل هذا الظن الذي يقوله كل قائل عجز
عن حصر التهم والعيوب فقد سلم ، لأنه ظن يقال أو لا يقال
على حد سواء

ومما قيل عنه ، ولم يكن قائلوه في معرض الثناء وحسن
النية ، أنه رجل عملي واقعي مفرط في الواقعية . وأنه لعملي
واقعي ما في ذلك جدال ، ولكن إذا كان المراد بالعملية
الواقعية أنها تقيض المثالية فهو خطأ مردود بغير مشقة ،
فإن العقل الذي يخلو من النزعة المثالية لا يؤمن بقيام دولة
أجمع خبراء السياسة والاقتصاد والاجتماع على استحالتها ،
وصرح بعض معارضيه أنهم يسلمون له مطالبه ليشهدوه
عجزه ويسمعوا منه اقراره بخطئه . إنما كان جناح عمليا
واقعيا لأنه كفو للعمل وكفو لتقدير الجهد الذي ينجزه ، ومثل
هذه الكفاءة تنقل المثالية الى عالم الواقع ، ولا تلغيها من
العقل الفعال ، فانما يفعل على مثال حيث يقنع غيره بالنظر
الى المثال والعكوف على احلام الخيال

المرحلة الثانية

سياسة القديس وسياسة القائد

بدأت سنة ١٩١٥ بمرحلة جديدة في حياة جناح العامة كما أسلفنا في ختام فصل سابق ، وهي المرحلة التي وضع فيها لجناح أن هيئة المؤتمر لا تكفى وحدها لخدمة القضية الهندية ، وان الاعتماد على هيئتين اثنتين أمر لا مناص منه في هذه المرحلة

لكن رد الفعل الذي طرأ من جراء هذا التحول لم يتجه بتفكير القائد الأعظم أول الأمر الى التباعد وتوسيع الشقة بين الهيئتين ، بل كثيرا ما كان رد فعله اجتهادا في التوفيق والتقريب ومبالغة في الاغضاء والمسامحة رابا للصدع ومنعا للفتنة وتوتر الاعصاب من الجانبين ، فاحتمل جناح في هذه المرحلة ما لم يكن يحتمله من قبل وفعل ما لم يكن يفعل ، وأيد أشد الغلاة في موقفهم أمام الدولة البريطانية ومنهم أتباع طيلاق الذي كان يجهر بأن الحركة القومية في الهند تحارب الدخلاء الهنود ، ويعنى بهم المسلمين ، كما يحارب الدخلاء الانجليز

وظل البراهمة الى سنة ١٩٢١ يهتفون باسم رسول الوحدة جناح ويعترفون له بالفضل في التوفيق والتقريب ، وأعربوا عن اعترافهم هذا ببناء قاعة في بمباي أطلقوا عليها اسم قاعة جناح ونقشوا على حجر الأساس فيها عبارة فحواها ان هذه القاعة « بنيت تقديرا للسيد جناح اعترافا

بخدماته الخالدة لقضية الهند في سنة ١٩١٨ ، وافتتحها
الشاعرة الهندية سروجيني نايدو وأبرقت اليه وكان في
باريس تقول : « لقد عرفت الأمة فضل الرسول في حياته »
وقد لبث جناح سنوات طوالا بعد سنة ١٩١٥ وهو
يلخص وظيفة العصبة الاسلامية باقتداره المعهود على تحديد
العبارات فيقول لمن يناقشه في وجودها : « اذا كان المؤتمر
هو حكومة المستقبل فالعصبة هي المعارضة الدستورية التي
لا بد منها ولا ضير فيها »

غير ان الخلاف - كما المعنا في هذه الصفحات آنفا - لم
يكن مداره كله على الضمانات الاسلامية ، بل كان مع هذا
وأهم من هذا - خلافا بين عقليتين ومنهجين ومزاجين : كل
خلافا بين سياسة القديس النبي وسياسة القائد العامل ،
سواء في القضية الهندية العامة أو في قضيتي البرهميين
والمسلمين منعزلتين

كان غاندى يبشر بمقاطعة الصناعة العصرية ومقاطعة
المدارس ومقاطعة الوظائف ، ويحارب الانجليز « بالاهمساء »
ويفرضها جاهدا على أتباعه وهم يعملون بها تارة وينقضونها
تارة أخرى

وكان جناح يؤمن بأن مقاطعة الصناعة ضربة للحياة
الاقتصادية في الهند تصيبها كما تصيب بريطانيا العظمى ،
بل ربما كانت الاصابة الهندية أفدح وأخطر من الاصابة
البريطانية

وكان يقول ان اقامة مصنع جديد الى جانب المصنع القديم
أنفع من ألف مغزل في المدينة والقرية ، واذا لاحظنا أن

المصانع الهندية كانت ، او كان معظمها ، ملكا للبرهمنيين دون المسلمين ، تبين أن الرجل انما كان ينظر الى مصلحة الجميع ولا يقصر نظره في مناهضة غاندى على مصلحة المسلمين

وكان يسأل : ماذا يصنع الطالب اذا لم يتعلم ؟ وماذا يفيد الهند من اخلاء الدواوين من الوطنيين وتسليمها جملة واحدة للغاصبين ؟

وقال غير مرة ان الزعامة السياسية قدوة ياتم بها الاتباع والمتعلمون ، فهل من الممكن المعقول أن يصبح الهنود كلهم أنبياء قديسين كالمهاثما غاندى ؟ وهل ينفع الهند أن يصبح أبناؤها جميعا على هذا الفرار في السياسة القومية والمعيشة اليومية ؟

وصواب جناح في نظره كصواب غاندى في نظره : كلاهما مستمد من صميم وجدانه وصدق ايمانه ، ولم يكن الرجل ممن يغالطون أنفسهم في الحقيقة التي تثبت في ضمائرهم أو يستبيحون مجارة التيار وكسب الرضى بالمجارة والمدارة ولو أجمع الناس ما عداه على مجاراته ومداراته

وقد أجمع الناس فعلا في ابان حركة المقاطعة وحركة الخلافة على مذهب في العمل السياسى لا يرتضيه فوقف وحده يناضل ويقاوم حتى أعياء اقناع الراى العام وثنيه عن جماحه ، فهجر الهند وأقام في انجلترا معولا على الاشتغال فيها بالمحاماة والانقطاع عن السياسة حتى يثوب المختلفون الى رأى يقبله ويؤمن بجدواه

رئاسته للعصبة الاسلامية

ولقيه الاستاذ البيروني صاحب كتاب «صانعي الباكستان» خلال هذه الفترة وهو مقيم في انجلترا سنة ١٩٣٢ فقال له وهو يحاول أن يستعيده الى ميدانه : « وما العمل ؟ ان البرهمنين قصار النظر ولا أمل لي في اصلاح أخطائهم ، والمعسكر الاسلامي ممتليء بأولئك الخلائق التي لا عظام لها والتي تقول لي ما تقول ثم تبادر الى صاحب السلطان لتسأله عما ينبغي أن تعمل ؟ »

وظفق المسلمون يبحثون عن قائد ، وطفقت الدعوات اليه تتوالى لاستعادته الى نشاطه ، حتى عن له من اشتات المعلومات التي تبلفه أن العمل ممكن على منهاجه ، وأن الأمة الاسلامية قطيع بغير راع ، فاستخار عزمه وقفل الى بلاده تلبية لصوت الواجب أو صوت التبعة الكبرى التي استقرت على كاهله دون غيره ، فرجع على شيء من الأمل ، ونفض عنه وساوس التردد والقنوط

كان الزعيم محمد علي قد فارق الدنيا ، وكذلك الزعيم محمد شافعي الذي طالت رعايته للعصبة وبذل ما بذل في حياته لاستبقائها ولم شملها ، وكان الزعيم « اقا خان » يلتفت الى الهند مرة ويلتفت الى مصائف أوربة ومينادين السباق فيها مائة مرة ، وكانت العصبة في غيبة الرؤوس الصالحة على وشك الانحلال فأجمع أعضاؤها (في سنة ١٩٣٤) على اختيار جناح رئيسا لها مدى الحياة وهو مقيم بانجلترا ، فاضطر الى العودة وصفى أعماله وروابط معاملاته ، وهي ليست بالقليل

ولم تمض أيام على تسلمه مهام الرئاسة حتى شعر
أعضاء العصبة ومن يعملون معها بدم جديد يسرى في
أوصالها ، وتحرك الجواد الذي قيل قبل ذلك انه جواد
ميت يلهبون جلده بالسياط ، وعلم في أرجاء الهند أن هناك
قوة جديدة يحسب لها حساب بعد أن لم يكن لها حساب

ان هذه العصبة أنشئت بأموال الاغنياء ، ولم يكن من
ذلك بد في أول الأمر ، لانها أنشئت لتقابل دعوة المؤتمر
الهندي بدعوة مثلها ، وليست موارد المؤتمر باليسيرة لكثرة
أعضائه وكثرة المشتركين فيه من أصحاب الملايين ، فأصبح
لزاما على أعضاء العصبة أن يوفرُوا لها المال وأن يضاعفوا
رسوم اشتراكها ويعتمدوا على تبرعات المتفضلين من
أنصارها ، فنفعها هذا السخاء من حيث ضررها ، نفعها بما
وفر لها من الموارد وضررها بالعزلة بينها وبين سواد
الشعب من الفقراء وأصحاب الرزق المحدود ، وأوشك أن
يقوم بينها وبين الشعب سد من سوء الظن وحاجز من
الوحشة والجفاء لهذه العزلة التي كانت في مبدئها عزلة
اضطرار لا عزلة اختيار

وفطن جناح لهذا النقص فأسرع الى تلافيه وأعاناه على
ذلك تقدم الشعب في فهم الهيئات السياسية وتنظيم العلاقة
بها ، فعدل دستورها وجعل الاشتراك فيها حقا مباحا لكل
من يؤدي رسمه الصغير ولا يزيد على عشرة مليمات ، وبث
الدعوة لها في الاقاليم ونشر فيها لجانها الفرعية والمركزية،
وبذل غاية وسعه للتفاهم مع الجماعات التي طال العهد على
تأسيسها وعز عليها أن تفاجئها العصبة في هذا الدور

الجديد بمنافستها القوية ، ولم يحجم عن التفاهم مع المؤتمر وتبادل المساعدة معه فى الانتخابات التى يعول مرشحوه فيها على المسلمين ولا يخشى من منازعتهم لأحد من المسلمين فى دوائره

واتبع فى ادارة العصبة نهجا ديمقراطيا يؤازره نهج دكتاتورى صارم عند اللزوم . فاذا أنس من بعض الاعضاء اعتراضا أو سماع منه نقدا جمع المجلس وبسط فيه موضوع الاعتراض أو النقد للمناقشة فى صراحة وسماحة ، وقد تطول المناقشة ساعات وتؤجل من جلسة الى جلسة حتى تتقارب وجهات النظر أو يقر المعارضون رأى الموافقين

فاذا لزم الصرامة عمد اليها فى حزم وسرعة كائنا ما كان مقام الاعضاء أو غير الاعضاء الذين استوجبوا تلك الحطة الصارمة ، ومن ذاك أنه أسرع الى فصل كل وزير مسلم قبل الوزارة بغير اذن العصبة ، وكلهم من أصحاب المقامات والاختار الكبار ، ولما نوقش فى قراره قال ان الشعب الاسلامى لم يطالب بحقوقه لتفرض عليه «السلطة» مرشحيها وتحسبهم عليه نوابا يعملون بمشيئته ويستمتعون منه بالثقة والتأييد ، ولكنه طالب بتلك الحقوق ليختار من يشاء ولا يترفع أحد عن الرجوع اليه قبل ولاية الحكم الذى يستمد منه ويجريه عليه

وقد ينصح وهو يعنى الأمر المطاع اذا خولفت النصيحة . ويروى عنه ان رجلا من كبار المسلمين زاره بعد زيارة الاقاليم الاسلامية فسمع غاندى بأخبار هذه الزيارة وأرسل فى دعوته للقاءه وصرفه عن مقاطعة المؤتمر ومطاعة العصبة

في تنفيذ برامجها ، فاطلع الرجل جناحا على الدعوة وسأله
رأيه فيها ، فلم يصانع جناح ولم يداور في الجواب بل قال
له في كلمات موجزة : « خير لك ألا تذهب »

قال الرجل : « أنصيحة هي أم أمر ؟ »

قال جناح : « ان لم يكن بد فليكن أمرا ، ولتعلم بعض
المحظور الذي أخشى منه عليك منذ الخطوة الأولى . . . انك
ستذهب الى غاندى فيتلقاك بثحية البراهمة مضموم الكفين ،
ويدعوك أدب المجاملة أن ترد تحيته بمثلها ، فاذا بالصحف
تنشر لك صورتك على هذا النحو ولا تنشر معها صورة
غاندى ، واذا بهذه الصحف متداولة بين جماهير المسلمين
ممن يفقهون ولا يفقهون ، فيريهم من رئيس مسلم أن يحكى
البراهمة في تحياته ولا يعلمون عنها الا انها تحية مختارة
ومحاكاة مقصودة ، ولا تدري أنت ما يتهامس به الشعب
وما يضاف اليه من الحواشى والاشاعات حتى تهم باصلاحه
وتوضيحه ، وقس على هذه المناورة مناورات مثلها لا حاجة
بك أن تستهدف لها وتبتلى بسوء أثرها »

قال جناح : « وأما وقد علمت الآن شيئا من أسباب
النصيحة التي حسبتها أمرا فارجع اليها واحسبها نصيحة
ان شئت قبلتها وان شئت أعرضت عنها »

قال بلوتارك أستاذ التراجم والسير فى الأدب الاغريقى
القديم : « ان كلمة أو نكتة تروى عن العظيم قد تنم على
ملكات له وأخلاق لا تنكشف للناس من روايات الفتوح
والخطوب الجسام »

ونصيحة جناح تلك كافية لجلاء ما طبع عليه من الحزم

والدهاء والفظنة لحيل الحُصوم وأطوار الجماهير

ولقد ظهرت يد جناح في تنظيم العصابة وجذب الانصار اليها ظهورا مفعما في الانتخابات الثانوية التي اجريت ما بين سنة ١٩٣٨ وسنة ١٩٤٢ ، فان العصابة نجحت في ست وأربعين دائرة من ست وخمسين ، ولم ينجح من مرشحي المؤتمر المسلمين غير ثلاثة نواب ، وبقيّة الناجحين من المستقلين

وأذيع احصاء عن عدد المشتركين في العصابة سنة ١٩٤١ فبلغوا مليوناً وتسعة وثمانين ألفاً ، وهو عدد يقارب عدد المشتركين في المؤتمر على قدمه وضخامة موارده ، ولم يكن أعضاء العصابة يزيدون في سنة ١٩٣٩ على ستمائة ألف من المشتركين ، وهو مع هذا عدة أضعاف المشتركين قبل ذلك بأربع سنوات

أما « المشروعات » والدمساتير التي عرضت على العصابة لتسوية القضية الهندية في أيام رئاسة جناح فهي متعددة لا فائدة من الاسهاب هنا في تفصيلها ، بيد أن المهم منها هو مشروع الحكومة الاتحادية « الفدرالية » الذي عرض للتنفيذ في سنة ١٩٣٥ وكان منذ فترة قريباً الى القبول مع تنقيح بعض نصوصه ، فلما عرض في سنة ١٩٣٥ رفضه المؤتمر ورفضته العصابة ، وعلّة رفض العصابة له صلابة المؤتمر في مسألة المرشحين ورفضه لكل مرشح في الاقاليم لا ينتمى الى المؤتمر ، ثم حصر السلطة العليا في أمور الدفاع والسياسة الخارجية والحزانية بين يدي الحكومة المركزية ، وأقوى من هذا وذاك سوء الظن الذي فشا بين المؤتمرين

والعصبيين خلال السنوات الاخيرة ، فانه جعل استقلال
الحكومتين حلا وحيدا لا محيص منه ولا طاقة لاحد بتعديله،
ومن البديهي أن المؤتمرين لم يتشبهوا بالوحدة الى اللحظة
الاخيرة عشقا لطلاب الانفصال وحرصا على استبقائهم ،
ولكنهم تشبهوا بها لانهم اصحاب الكفة الراجحة فيها

على أنه من الثابت ان العصبية لم تتبع خلال الفترة من
المناداة بالتقسيم الى تنفيذه خطة من الحطط في مسألة كبيرة
أو صغيرة ترمى بها الى احباط الاستقلال وتغليب البريطان
على البراهمة ، فكل برامجهما كانت تبدأ وتنتهي بطلب
الاستقلال للحكومتين ، أو كما قال جناح بأسلوبه الناصع
الساحر : « ان استقلال البقرة رهين باستقلال الباكستان! »

قال المؤلف الكندي رالى باركن Raleigh Parkin

فى كتابه « الهند اليوم » وقد ظهر قبل نفاذ التقسيم :

« لا يمكن يقينا أن يقال عن العصبية انها جانحة الى
البريطان ، وكثيرا ما تعاونت فيما مضى مع المؤتمر أو كانت
على استعداد لمعاونته فى الحركة الوطنية . غير أنها فى
السنوات الاخيرة ، وبخاصة منذ أواخر سنة ١٩٢٧ جعلت
خطتها التى لا لبس فيها مقاومة المؤتمر ومقاومة البرهمين،
ومهما يكن شأنها فى الماضى فاليوم لا ريب أنها أقوى الهيئات
الاسلامية فى الهند وأوسعها نفوذا وانه ما من سياسى مسلم
يستطيع الآن أن يغفل شأنها »

كذلك لا يجرى فى خلد انسان عارف بتاريخ الهند
الحديث أن يتخيل أن تقسيم الباكستان يخدم قصدا أو على
غير قصد سياسة بريطانيا العظمى التى تقوم على قاعدة

« فرق تسد » .. فمثل هذا الحاطر يقابله العارفون بتاريخ
الهند الحديث بالسخرية والاستخفاف ، لان بريطانيا
العظمى كانت تعرض على الهنود حلا بعد حل وتسوية بعد
تسوية وتصانع المسلمين حيننا والبرهمنيين حيننا آخر فرارا
من التسليم بالتقسيم ، ولم يكن أنفع لها ولا أعون لحكامها
وساستها أن يدخلوا بالتفرقة بين الأمتين من بقائهم في
دولة واحدة يضربون فريقا منها بفريق كلما شامت لهم
سياستهم أن يحصلوا على التأييد من الفريق الغالب ولو
كان خليطا من الأمتين ، وقد لمح بيفرلى نيكولاس صاحب
كتاب « حكم في القضية الهندية » الى تلك الفكرة فأجابها جناح
محتدا : « ان الرجل الذي يدور في خلدته هذا الظن لضعيف
الثقة حقا بذكاء البريطان بله الثقة بسلامة مقاصدى ، فان
الأمر الوحيد الذى يبقى البريطان فى الهند هو الفكرة
الزائفة التى تدعى وحدة الهند كما يبشر بها غاندى .. وأعود
فأقول ان الهند الواحدة اختراع بريطانى ، أو هو أسطورة
بل أسطورة جد خطيرة ، تجر الى شقاق ليس له نهاية ،
وما دام هذا الشقاق قائما فهناك عذر يعتذر به البريطان
للبقاء ، وهذا هو الشذوذ فى قاعدة فرق تسد .. »

قال بيفرلى : « اذن أنت تقول لهم : « قسموا واخرجوا » ؟ »

قال جناح : « لقد أصبت محزما »

وخرج الصحفى من هذه المحادثة وهو يقول ان القاعدة
التي تصدق على قضية الهند هي « وحد واحكم وفرق
واخرج .. »

وقد أكد جناح له فى هذا الحديث أن الفهم الصحيح لهذه

الفكرة سهل الورد على ذهن الرجل المخلص ولو كان من
البريطان ، فان جون برايت خطيب الحرية في عهد غلادستون
(والوزير الذي استقال من وزارة غلادستون احتجاجا على
ضرب الاسكندرية) قال في احدي خطبه : « الى كم من
الزمن تريد انجلترا ان تحكم الهند ؟ ليست الاجابة على هذا
السؤال في وسع أحد ، ولكن لتكن دولة الانجليز في الهند
خمسين سنة او مائة او خمسمائة ، فهل يحسب انسان له
ذرة من الادراك السليم ان بلادا شاسعة بما فيها من أمم
تبلغ العشرين ولغات لا تقل عن العشرين يتأتى أن تضم
وتنحاز في حدود قطر واحد متماسك تدوم فيه امبراطورية
واحدة ؟ أعتقد أن شيئا كهذا مستحيل »

وقد أعاد المؤلف خطب برايت الى جناح وهو مؤمن بوجهة
نظره ، وجاء الواقع بعد قليل فأقر هذه الوجهة ببرهان
ضخم يحسم كل جدل ويفند كل منطلق ، وهو نجاح
الباكستان

قوة البيان

مهما تكن عناصر القوة في الزعماء الذين ينشئون الدول
بغير السيف فالبيان قوة لاغنى لهم عنها ، وبخاصة في هذا
العصر عصر المؤتمرات والمناقشات والأحداث الصحفية
والردود عليها

لاغنى للزعيم عن قوة البيان . .

ولكن أي بيان ؟ . .

ليس من المفارقات أن نقول ان كلمة « البيان » لاتبين
وحدها في هذا الصدد ، فان البيان اساليب ، ولكل خطيب

أو كاتب بين أسلوبه الذي يكاد يخصصه بملامحه وسببما .
وكذلك كان بيان جناح في دعوته السياسية ، بيانا خاصا به
لا يشبه بيان أحد من زعماء الأمم في عصره

كانت خاصة هذا البيان أنه بحسن تلخيص المسائل المعقدة
في كلمات موجزة تعلق بالذهن لما فيها من المفاجأة النافذة :
تلك المفاجأة التي يشعر السامع لأول وهلة أنها حلت له
العقدة بمجرد التعبير عنها في وجازة وصفاء

وكانت له مع هذه الخاصة خاصة الجواب المسكت والعرض
المقنع ، أو خاصة الضربة السريعة التي يتلقاها المهاجم وقد
ظن أنه أصاب الرجل في المقتل ، فإذا هو المصاب
خطر لى حيناً أن جناحاً قد استفاد هذا البيان من صناعة
المحاماة على نظام المحاكم الانجليزية ، لأن قضاتها يتدربون
على تلخيص الأقوال المتناقضة للمحلفين أو لأعضاء المحكمة
الأخرين ، ويطلب من القاضي في المحاكم العسكرية على
الخصوص أن يجعل الكلام من جميع أطرافه لتبسيطه من
الوجهة القانونية

كذلك يحتاج الدفاع في هذه المحاكم الى القدرة على
المساجلة التي يسمونها Cross examination وقوامه كله على
الاستدراج وعلى السؤال المفاجيء والجواب السريع

الى ان قرأت في كتاب « صوت آسيا » حديثاً دار بين
مؤلفه جيمس ميشنر Michener والأنسة فاطمة
جناح شقيقة القائد الأعظم ، فوقع في نفسى من
أسلوب الرد والاقناع في هذا الحديث ان الملكة التي امتاز بها
جناح اقرب الى الطبع الموروث منها الى التعليم المكتسب ،

لان أسلوب الأنسة شقيقته كان نسخة مطابقة لاسلوبه ،
مع اختلاف كاختلاف الرجل والمرأة في ملامح الأسرة الواحدة
قال المؤلف : « شعرت بوخز نقدها حين لاحظت انه من
المستغرب أن جناحا الذي لم يكن من رجال الدين المتعبدین
ينشئ دولة ثيوقراطية . فانفجرت قائلة : ماذا تعنى بدولة
ثيوقراطية ؟ اننا دولة مسلمة ، وهذا لايعنى انها حكومة
دينية ، انما تعنى انها حكومة مسلمين . فماذا تريدنا ان
نكون ؟ احكومة مسيحيين ؟ احكومة براهمة ؟ اننا لسنا حكومة
يديرها قسيسون ولنا حكومة كهانة . وانما نحن حكومة
قائمة على مبادئ الاسلام ، واقول لك انها مبادئ جميلة
في اقامة الحكومات »

قال المؤلف : « و اردت ان استعيد موقفي فقلت : ان الذي
عنيته ان حكومتكم تعلن ان الاسلام هو دين الدولة الرسمي!
فما فهت بها حتى تلقيت طوفانا كانت حملة السؤال السابق
مطرة صيف بالقياس اليه ، وتكلمت الأنسة جناح بأسلوب
السخرية والاصماء الذي تعودته الناس من جناح في دفاعه عن
الباكستان ، وضحكت وهي تقول : « لاتقل هذا .. فالحكومات
جميعا تعترف بدين رسمي هو الغالب عليها . والمسيحية
هي الدين الرسمي في البلاد الامريكية »

وحاولت ان اقول ان هذا غير صحيح كل الصحة ، ولكنها
ضحكت مرة اخرى وقالت : لعلك تعثر على تفسير ماهر
يساعدك على انكار الصيغة المسيحية في حكومة امريكا ،
ولكن ماذا عسى ان تزعم عن الوف الجماعات المبشرة التي
ترسلونها الى انحاء العالم ؟ ولماذا تحاول امريكا ان تحوانا من

ديانة حكومتنا الى ديانتكم ؟ ولماذا تتدخل حكوماتكم بالقوة
حماية للمبشرين اذا لم نصبأ باختيارنا ؟

قلت : « ليس هذا هو الواقع ، وعلى فرض وقوعه
فحكومتنا لا تؤيد اولئك المبشرين »

فقاطعتنى الانسة جناح قائلة : « حكاية مليحة ! فمن اين
اذن تاتى الاموال التى ينفقها المبشرون لتحويل اهل الهند
والباكستان عن دينهم ؟ تقول انها تاتى من الموارد الخاصة .
حسن ! فلماذا تبذل الموارد الخاصة تلك الاموال ؟ انها تبذل
لان اصحابها يؤثرون دين بلادهم ، ولا اعتراض لى على ذلك ،
وليس لكم كذلك ان تعترضوا على ايثار اهل الباكستان
لدينهم . فانما هى بواعث متشابهة فى نفوسنا ونفوسكم »
وقد صدق المؤلف حين شبه اسلوب الانسة فى الرد
والمناقشة باسلوب شقيقها ، فهما فى الحق متشابهان كما
تشابه ملامح الاخ والاخت فى الاسرة الواحدة

كان جناح لا يتلجلج ولا يتلعثم اذا فوجيء بالسؤال المحرج ،
او السؤال الذى يريد به السائل الحرج ، بل يلاحق السائل
بالجواب المسكت الذى يقطع اللجاجة قطع الموسيقى الريميضة
لخيوط الشباك

قال له صحفى انجليزى مرة فى مقام الاعتراض : ولسكنك
ياسيد جناح كنت يوما عضوا بالمؤتمر . قال : « نعم ، وكنت
يوما تلميذا بالمدرسة الابتدائية »

وقال له زعيم هندي يحارب اقتراح الباكستان : « اننا
لانفهم ماهذه الباكستان التى تدعو اليها ؟ »

فقال : « ولماذا اذن تحاربها قبل ان تفهمها ؟ » . ولما قيل

له : « انك عجزت عن تأليف وزارة ، فما بالك تطمح الى انشاء
الباكستان ؟ » قال : « لكيلا نعجز عن تأليف وزارة ! »
وافنخر عليه « ضحايا » الوطنية بانهم سجنوا وهو لم
يسجن ، فقال : « ان دخول السجن اسهل من العمل
السياسي »

واطال في هذا المعنى فقال : « اننى لا اومن بالبدء في حركة
سياسية سعيا وراء الاعتقال ، وصدقونى انه لا يصعب على
ان اذهب الى السجن لأقضى ثمة ستة شهور او نحو ذلك .
وما اصاب السيد غاندى بعد ضرر من سجنه . فقد كان في
امان بين جدران قصر اغاخان ، وكان معه كاتبه ، بل كان
معه كل أسرته ، ولكن من ذا يتلقى الرصاص وانا في معتقلي ؟
انهم اخواني »

وقال في مناسبة اخرى : « يعيبوننا باننا لم نضح في
سبيل غايتنا . واخشى ان اقول اننا لانستطيع ان نساهم في
تلك التضحية التي تدرب عليها سياسة المؤتمر : ان نتصدى
للزعامة . ان نجلس صابرين تحت سياط الشرطة . ان
نذهب الى السجن . ان نشكو بعد ذلك من نقصان الوزن .
ان ندبر حينئذ وسيلة الفرج والانطلاق . . كلا . لست
اومن بهذا الفن من الكفاح . ولكننى اذا وجب ان اواجه
الخطر فلست ابالي يومئذ ان اكون اول من يصمد للنار »
ومن تلخيصاته السهلة قوله عن الوحدة والتقسيم : « ان
الوحدة التي خلقها مدفع المستعمر لاتصلح بعد جلائه »
ومنها : « ان الآفة في سياسة المؤتمر انها تشكو من مركب
الزيادة او الرجحان Superiority complex لا من مركب
النقص »

وأشهر تلخيصاته التي جمع فيها مزايا التقسيم : « ان استقلال الباكستان ضمان لاستقلال البقرة المعبودة » ومثله في الشهرة تلك الكلمة التي جمع فيها موانع الوحدة : « انهم يعبدون البقرة ونحن ناكلها ، فكيف يحكمنا نظام واحد ؟ »



أما بلاغته في الخطب والرسائل والبيانات فهي من هذه البلاغة الخاصة التي هي على ما رأينا أقرب الى الطبع الموروث منها الى التعليم المكتسب : بلاغة ليست من بلاغة التفخيم أو التجميل ، وليست من بلاغة التحليق الى الاعالي أو الفوص الى الأعماق ، ولكنها بلاغة تمتاز بالبساطة والنفاذ السريع ، تلم بأطراف المسألة وتنفذ الى محورها وتترك السامع أو القارئ وهو يحس أنه قد ألم بأطرافها ونفذ من محورها الى الصميم

قال عن الديمقراطية في الاسلام : « ان الديمقراطية غريبة عن المجتمع البرهمي ، وليس من غرضي ان اتناول مجتمعا كائنا ما كان بغير الاحترام ، ولكن الواقع ان المجتمع البرهمي مقيد بالطائفية منهوك بقيود هذه الطائفية ، وليس للمنبوذيين فيه مكان اجتماعي او اقتصادي او مكان ما يسكنون اليه » على ان الديمقراطية في دم المسلم الذي يدين بالمساواة بين جميع الناس ، وهاكم مثلا من أمثال ، وهو أنني كثيرا ما اذهب الى المسجد ومعى سائقى يصلى الى جانبي ، وما زال المسلمون يدينون بالأخاء والمساواة والحرية

« وبعد فكيف يكون في مقدور قلة ان تصد كثرة ؟ »

هذه جراحة في الادعاء . ونحن من ثم لانصد الكثرة ولكننا
اهل لان نستقل بحكم انفسنا »

وقال في ذكرى الشاعر اقبال (سنة ١٩٤٤) :

« اننى احببى في هذا اليوم ذكرى عزيزة هي ذكرى شاعرنا
القومى اقبال : هذه الذكرى التى نحبب فيها اسم الشاعر
الحكيم الفيلسوف المفكر العظيم . سلام على روحه في ساحة
الخلود

« اننا لانراه بيننا الآن ، ولكن شعره المقتبس من معدن
الخلود يقيم على الدوام معنا ليهدينا ويوحى الينا ، وهو بجمال
نظمه وحلاوة لفظه يصور لنا عقل الشاعر العظيم وقلبه فنرى
في هذه الصورة مبلغ اخلاصه لاداب الاسلام

« وما كان اقبال بالواعظ او الفيلسوف وكفى . بل كانت
تمثل فيه مع التفكير والالهام مزايا الشجاعة والعمل والثبات
والاعتماد على النفس والايمان قبل كل شىء بالله والاخلاص
للدين ، وكانت تتلاقى في نفسه آمال الشاعر المثالية وسليقة
الرجل الذى ينظر الى وقائع الامور ، وبهذا يتجلى لنا مسلما
حق الاسلام .. »

وقال عن دعوة السلام من خطاب في اغسطس سنة ١٩٣٨ :

« .. في كل بلد مخرفون بقولون انهم وقوف الى جانب
قضية السلام .. وما من شىء اريده كما اريد ان يعم السلام
الشامل ارجاء الكرة الارضية ، فلا يكن في الدنيا حرب ولا
يكن هناك غير الرخاء والامان . وليس من ناحيتى اعتراض
على الغاء الحروب جميعا في كل مكان ، غير اننا فيما نحن
بصدده لانناقش اولئك السادة الموقرين انصار السلام .

فليست المسألة في رأيي مسألة ايمان بالسلام او كفر بالسلام .
لان المطلوب منا ان ننقد رقابنا حين يحقق بنا الخطر ، وما
يدور في نفسى لحظة ان اصيب احدا باذى ، وما اريد الا ان
اكون انسان خير مفرطا في الخير ، ولكننى لا اضمن من اجل
هذا ان يكون الناس جميعا خيرين والا يكون فيهم احد
يؤذبنى او يطوى النية على ايدائى . فليست المسألة سلاما
او لا سلام ، وانما هى دفاع او لا دفاع . هذه هى مسألة
اليوم . وجوابى انا عليها الدفاع . . . »

واقترح عليه غاندى ان يجتمعا للبحث في مشكلة الوحدة
والانفصال ، فقال غاندى في اول لقاء انه ينوب عن نفسه
ولا ينوب عن هيئة سياسية ، ولم ير جناح نفعا في مباحثة
يتقيد بها ويتقيد العصبية الاسلامية معه ولا يتقيد بها غاندى
ولا المؤتمر ، وعلق على ذلك في خطاب القاہ بمدينة بومباى
(١٩٤٥) قال فيه :

« انه لا يقنع بمهمة المستشار للمؤتمر ولجنته العاملة ،
بل يقيم نفسه مستشارا ناصحا للحاكم العام ومن ورائه
الامة البريطانية ، وتنعقد اللجنة العاملة صباحا ومساء وهو
الروح الملهم ورائها . وهو مع هذا يروقه احيانا الا يمثل
احدا فلا يمثل احدا ، ويصبح فردا لاصفة له غير صفته
الفردية ، ولا يعتبر في هذه الحالة عضوا كأولئك الاعضاء
الذين يمثلون المؤتمر بحق الدريهمات التى تخولهم الاشتراك
فيه ، وينزل بنفسه الى مرتبة الصفر ليستلهم صوته الباطن
... اما اذا راقه ان يكون غير ذلك فهو السيد المطلق في
المؤتمر وهو بهذه المثابة ينوب عن الهند بأسرها »

وعاد الى هذه الدعوى في اجتماع مجلس العصبة (٢٨)
يولية سنة ١٩٤٦) فقال :

« ان مستر غاندى يتخذ من نفسه اليوم مستشارا ناصحا
للجميع . يقول ان المؤتمر يمثل الهند بأسرها وان المؤتمر هو
الوصى الأمين على أبناء الهند قاطبة . وانها لمرتبة هائلة تلك
التي يبتغيها . ولقد كفانا ما ابتليناه من الوصى الأمين الذى
تسلط علينا مائة وخمسين سنة ، فما نحب ان نستبدل به
وصاية المؤتمر . لقد كبرنا وبلغنا رشدنا ، فلا وصاية على
الامة الاسلامية لغير الامة الاسلامية »

ولم يكن من اسلوبه ان يقابل التهديد بالمزايدة في التهديد
مرضاة لسورة النفوس التي يعجبها هذا الاسلوب . فلما
عرض عليه الصحفيون خطاب السردار باتل وسألوه رايه فيه
قال : « ان السردار باتل رجل قوى كما وصفوه فلا جرم
يعمد الى اللغة القوية . الا ان الكلمات لا تكسر عظما ، فاذا
كان يعنى بقوله له : « اننا اعددنا السيف للسيف » ان الكثرة
ستدبح القلة في ارجاء الهند فتلك طلعة بشعة . وغاية ما اقوله
انه على ما يظهر لا يدرك ان كل من يحرض هذا التحريض
فهو اعدى الاعداء لكل طائفة .. »

وتصدى له الشيوعيون ليكرهوه على قبول مطالبهم باسم
القومية فقال :

« يلوح لى ان امهر طائفة تبث دعوتها هي معشر الشيوعيين .
انهم قد اكثروا من الرايات التي يستظلون بها واخلهم
يحسبون ان البركة في الكثرة (ضحك) انهم يرفعون
الراية الحمراء ، ويرفعون الراية الروسية ، ويرفعون راية

الجماعات السوفيتية ، ويرفعون راية المؤتمر ، ويتفضلون
الآن فيستعبرون منا رايتنا راية العصابة الاسلامية ، واذا
جمعت فئة كل هذه الرايات معا فمن حقنا ان نتوجس
ونحذر . انهم يصيحون يطلون اتفقا بين العصابة والمؤتمر ،
فسامحهم الله من الذي يطلب غير ذلك ؟ انما السؤال هو :
على اى اساس يكون الاتفاق ؟ »

وخطب في جماعة النساء المسلمات (في سنة ١٩٤٢)
فقال :

« يسرنى ان ارى ان النساء المسلمات يفهمن رسالة
الباكستان كما يفهمها الرجال المسلمون . وما من امة تثار
على طريق التقدم بغير معاونة من نساها . فاذا كان المسلمات
يعاون رجالهن كما صنع المسلمات في عهد نبي الاسلام فقد
وصلنا الى غايتنا »

وقال عن رسالة القرآن . « وصف الانسان في القرآن
الكريم بانه خليفة الله . فاذا اردنا ان نحقق هذه الصفة
فاولى ما توجبه علينا ان نتبع مع غيرنا سنة الله مع بنى آدم
في اوسع معانيها . سنة الحب والصبر ، وكونوا على يقين
انها سنة عاملة وليست سنة مانعة وكفى

« واذا كنا نؤمن حقا ايمان اليقين والحب في معاملة خلائق
الله من كل قبيل فعلينا ان نتبع هذه السنة في معيشتنا
اليومية وفرائض تقوانا وعبادتنا . ولسنا نرى في هذا اليوم
المبارك - يوم العيد - علامة على الروح التى اذكاهها في قلوبنا
شهر الصيام اظهر من العزم الوثيق على نشر السلام والوفاق
في ديارنا بين انفسنا وبين اصحاب العقائد جميعا في اوطاننا ،

وان نعمل في حياتنا الخاصة وحياتنا العامة عملا يتنزّه عن
الاثرة ويتوخى الخير الاعظم لقومنا ولابناء آدم اجمعين

« انه مطمح سام عظيم يتقاضانا الجهد والايثار والفداء .
واحسبوا حساب الشكوك التي تساوركم فينة بعد فينة ،
شكوك لا تنحصر في النزاع المادى الذى يوزع قلوبكم وقد
يسهل عليكم ان تغلبوه بشجاعتكم ، ولكنها شكوك روحية
لامناس لنا من مواجهتها ، وليس في وسعنا ان نروضها غدا
اذا اعيتنا رياضتها في هذا اليوم الذى تخشع فيه نفوسنا
لخالقها

« واعلموا انه لاغنى في كل نشأة اجتماعية او حرية
سياسية من الاعتماد آخر الامر على سر عميق في حياة
الانسان ، وارجو ان تعلموا ان هذا السر العميق هو روح
الاسلام . فليست الخطبة العظيمة ولا المؤتمرات الكبرى
هى التى تصنع سياسة الامم . واقول للشبان الكثيرين الذين
تعودوا ان يسألونى كيف يقدرّون على خدمة بلادهم هلموا
يا اصدقائى الفتيان واعذرونى اذا عرضت للسياسة في هذا
المقام ، فانما اعرض لها لاقول لكم اننا جميعا نطالب بالحقوق
وندعى للدعاوى في الهند المقبلة ، فينبغى الا نركب مركب
العناد في السعى اليها ، فان العناد نقيض ما يوحىه الينا هذا
العيد من الحب والمسامحة والبركة التى يامرنا النبى عليه
السلام ان نبسطها لغيرنا ، وفي وسع كل منا ان يخدم هذا
الوطن برياضة النفس وانها لجوهر كل قداسة نحيبها في
هذا الموسم . فليسأل كل نفسه : اهو على نظام في معيشتة ؟
اينام في مواعده ؟ ايسير في الطريق على جادته ؟ ايصون الطريق

عن منبوذاته ومطروحاته ؟ ايبخلص في عمله ويلتزم الامانة في شغله ؟ ايعين غيره بما في وسعه ؟ ايعامل غيره بالصبر والسماحة ؟ . . . هذه امور قد تبدو صفارا وهي على هذا نواة كل نظام كبير القيمة فيما تتضافر الطوائف جميعا على ادخاره لخدمة وطنها ، خدمة هند اعظم واعلى . وربما كانت خدمات لاتبرز صاحبها في اضواء السياسة ، ولكنها تكفل لكم سلاما باقيا في قلوبكم كلما شعرتم انكم قد اديتم حستكم لتيسير السياسة كلها . . . »

وكان من دابه ان يذكر سامعيه وتلاميذه بحكمة هولندية هذه ترجمتها :

« ضاع المال . . لم يضع شيء »

« ضاعت الشجاعة . . ضاع شيء نفيس »

« ضاع الشرف . . ضاع انفس ما نملك »

« ضاعت الروح . . كل شيء ضاع »

هذه نتف متفرقة من كلمات جناح في معارض شتى ، نحسبها نموذجية في التعريف بخصائص بيانه ، وهو وسيلة من وسائل نجاحه في زعامته ؛ وفيها كذلك تعريف بمناحي تفكيره ، وهو على جملته تفكير صريح سهل مستقيم

على الحاشية

العزيمة والفصاحة والقدرة على التنظيم عناصر ملموسة في كيان القائد الاعظم ، ولكنها لاتحصر جميع الخصائص التي تتألف منها معالم هذه الشخصية . تلك هي عناصر نجاحه في الزعامة ، ولكنها تقترن بصفات اخرى على حاشيتها

ترسم لنا سائر معالمها ، وقد تكون أيضا من عناصر النجاح
أو من العناصر الفعالة في ولايته لأمر الدولة الجديدة
من تلك الصفات خليفة المسالمة

ويدهش كثير من الناس إذا سمعوا أن هذا الرجل الصارم
مسالم ، لأن الصرامة في الأذهان عامة مرادفة للشدة في معاملة
الآخرين والتحفز لمخاشنتهم والجور عليهم . ولعلمهم لا يخطئون
في الجمع بين الصرامة والجور في خلة واحدة ، إلا أن الصرامة
في صميمها صرامتان : أحدهما صرامة في دفاعنا عن حدودنا ،
والأخرى صرامة في الجور على حدود غيرنا ، وشتان ما بين
الخليقتين

إن الرجل الذي يشتد في الدود عن حدود حقه قد يكون
مثلا للمسالمة إذا أمن على تلك الحدود ، وقد يصوره للناس
في صورة الجائر المعتدى أن تضعه الحوادث في مقام الدفاع
أبدا فلا يتخيلونه إلا مشتدا محتدا متحفزا متوفزا لا يؤمن
جواره ولا تهدأ ثورته ، ومن أستغرب وصف جناح بالمسالمة
لهل يتصوره دائما في تلك الصورة الثائرة دفاعا عن موقف أو
كشفا للعدوان في موقف خصومة ، بيد أن المتابعة والاستقصاء
تنتهي بكل ثورة من تلك الثورات الصارمة إلى حد تقف عنده
ولا تتخطاه ، وليست كذلك ثورة الجور والعدوان

تجلى خلق المسالمة فيه يوم سالت الدماء في الهند وتوالت
الأنباء عن مقاتل المسلمين في مساكنهم أو في طريقهم إلى
الباكستان ، وغلت الدماء في العروق وأوشك الزمام أن يقلت
من الأيدي ، وخيف في كل مكان أن يتغلب الفيظ على الحكمة
والرحمة وأن يطيش الثأر فيؤخذ الأبرياء بذنوب المجرمين ،

ويقع العدوان على قوم من البراهمة انتقاما للمسلمين الذين
قتلهم البراهمة في غير الباكستان

في تلك الايام لم ينم جناح ونم يغفل لحظة عن مواطن القلق
والخوف ، وطفق يرسل النداء بعد النداء ويطلق الوعظ في
الحواضر والقرى ليبصر الناس بأوامر دينهم وما يجب عليهم
لاخوانهم في وطنهم ، حتى حفظت الباكستان مسلمها وبرهميها
كلمته التي كان يرددتها : ان ظلم البريء انتقاما من الظالم
مجازاة للظلم واجرام فوق اجرام

وتجلى هذا الخلق في معاملته للحكومات المجاورة كما
تجلى في معاملته لرعاياه ، فكانت اوامره المتلاحقة لجنوده
ان تسالم ولا تهاجم ، وان الدفاع اذا وجب فهناك يسمعون
منه امر الدفاع الى ان يبید آخر رجل بل آخر امرأة وآخر
طفل قبل ان يفرطوا في قيراط من حوزتهم . اما قبل ذلك
فلا محل للحرب ما دام في السياسة متسع للسلام

وقد شهدت الهند والباكستان صفحة أخرى لهذه
الصرامة عند نشأة الدولة وانحاح المشكلات الخارجية عليها
في ابان التقسيم

في تلك الفترة كانت صرامة جناح شدة تتلوها شدة ،
واصرارا على هذه الشدة لا يعرف الهوادة او المساومة
في تلك الفترة صادر كثيرا من الدعوات واعتقل كثيرا من
القائمين بها ، وانكر ان يكون هناك غرض سليم وراء المقاومة
التي يقدم عليها معارضوه

وانتقد المنتقدون ، واعتذر المعتذرون

اما المنتقدون فقد استندوا الى مبادئ الحرية والديمقراطية

وأما المعتدرون فقد شبهوا الحالة يومئذ بحالة الحرب بل بحالة الخطر على سلامة الأمة ، وقالوا ان في حياة الأمم أيما يباح فيها للحاكم الموثوق باخلاصه ما لا يباح له في كل يوم

حجتان سمعتا في اقطار كثيرة غير الباكستان ، وانتقاد واعتذار لم ينقطعما فيما مضى ولا ينقطعان في هذا الزمان ، واقل ما يكون ذلك الانتقاد وذلك الاعتذار احسن ما يكون ، فما من احد يزعم للسلطان المطلق او للحرية المقيدة انهما اكثر من ضرورة مكروهة في جميع الاحيان

وقد سبقت الاشارة الى مخالفة جناح لزعماء الهند من المسلمين والبراهمة في مسلكهم ، او مسالكهم المتلاحقة ، في مسألة الخلافة ، ويجوز ان يقع في الخاطر ان جناحا لا يعنى بالأمم الاسلامية او الأمم الشرقية خارج بلاده ، وانه لا يشعر بالعطف لغير وطنه وامته ، وهو خاطر يجوز ان يقع في الخاطر كما اسلفنا قبل الاطلاع على آراء الطرفين في كل مرحلة من مراحل هذه المسألة المعقدة المعقمة بالتناقض بين ظواهرها وبواطنها ، وحسبنا منها في الهند قيادة غاندى لحركتها واحجام جناح واقبال في بعض المواقف عن مجاراتها

أما الحقيقة التي يسفر عنها الاطلاع عن الآراء المتقابلة في المراحل المتعاقبة فهي ان جناحا كان يعترض على العبث ولا يعترض على الجد في هذه الحركة وما يماثلها

كان ينكر تضييع الجهود حيث يكون تضييعها خسارة على الهند ولا يرجى منه نفع للخلافة ، وكان بشاقب نظره يرى النزاع بين السلطان العثماني والرعايا المطالبين بالحقوق

الوطنية والحرية الدستورية فيفصل بين المسالتين ، ولا يحب
أن يكون مؤيدا « للخليفة » وخاذلا لرعاياه

وفيما عدا ذلك لم يتوان يوما عن تعقب اخبار الشرق من
اليابان الى اقصى المغرب ، ولم يسكت قط عن كلمة نافعة
تقال في قضية من قضايا الاقطار الاسلامية على الخصوص ،
فصرح للحاكم العام في ابان الحرب العظمى بان مساونة
المسلمين معلقة على ضمان الوطن الاسلامى في فلسطين ،
وخرج على المعهود من اتزانه في عباراته الرسمية فحذر الغرب
يوما من تلك السياسة التى ترمى الى استئصال السيادة
الاسلامية في جميع بلادها ، واحتج على خطط هولندا في
« اندونيسيا » واستعدى هيئة الامم عليها ، وتابع الاطلاع
على اطوار القضية المصرية حتى قيل له مرة لماذا لاتنال
القضية الهندية مثل هذا الاهتمام من بريطانيا العظمى ؟
فقال : وهل عندكم هنا « جامع ازهر » تخرج جموعه
بالرايات السود كلما حزب الامة المصرية حازب ، فلا تبلغ
نهاية الطريق حتى يكون الخبر في دوننج ستريت ؟

وتداول القوم عن جناح انه الزعيم « الارستقراط » .
تداولها الانجليز كما تداولها الهنود ، وسلمها الاصدقاء كما
سلمها الخصوم ، ونظن انه هو لاينفى من هذه الشهرة انه
رجل محافظ على سمعته معتكف لا يستكثر من العشاء في
جميع علاقاته ، فمما يزكيه مع هذا ان العناية بالطبقة الفقيرة
كان على راس القائمة في جميع برامجهم ، وانه لم يكن يفعل
ذلك جريا وراء الجماهير فانه من المفروغ منه ان الجرى
وراءها مظنة لم تخامر نفوس انقادحين فيه فضلا عن مادحيه ،

وقد جاءتة الاصوات الى عقر داره والح عليه عليه القوم ان يتولى الرياسة مدى الحياة ، بل هتفوا له باسم الشاهنشاه فاعتذر وقال لمن عرضوا عليه رياسة الدولة طول حياته : « دعونى ازورككم من حين الى حين فاسمع منكم وتسمعون منى ، واسالكم اصواتكم وتسالوننى ما فى نفوسكم . . »

واصدق ما نشبه به جناحا فى مناقبه وخصائصه التى اجملناها انه صاحب « شخصية » غير مطلقة ولكنها غير موصدة : شخصية كالخزانة التى لاتعرض نفائسها فى وجهة بلورية ولكنها لاتحفها بالشوك او تحيطها بالحراس والارصاد ، وتنفق مما تحتويه انفاق الكريم السخى الذى لايمتن على احد بعطائه ، ولكنه لا يقبل فيه السوم والمساومة ، واليه المرجع حين يعطى وحين يكف عن العطاء

حياة الخاصة

كتب الشاعر الالماني هنريك هاينى عن فيلسوف الالمان
الكبير د عمانويل كانت ، فقال ان ترجمة حياته الخاصة من
أعسر الأمور . لأسباب كثيرة ، أولها انه لم تكن له حياة
خاصة !

ويستطرد الشاعر الظريف فيقول ان الفيلسوف كان
يأكل وينام ويستيقظ ويتمشى للرياضة ويجلس للتدريس
بالساعة ، وانه كان اذا ظهر فى رواق الزيفون يتمشى
كعادته كل أصيل نظر اليه الناس وأخرجوا ساعاتهم
فضبطوها !

مثل هذا الكلام يقال عن القائد الأعظم ، ولكن لعل غير
العللة التى تعلق بها الشاعر الساخر للفيلسوف الحكيم
فمن أعسر الأمور كتابة حياة خاصة للقائد الأعظم ولكن
لعل غير هذه العلة ، وتلك هى علم الجميع بحياته الخاصة ،
فليست له حياة خاصة بين الجدران أو وراء الحجب يعلم بها
أناس ويجهلها أناس : حياته الخاصة كانت هى حياته التى
تخصه ويعلم بها جميع عارفيه ، ولم يكن لها ظاهر متكلف
ولا سر محجوب

كان زعيم أمة قوامها الدين ، ولكنه لم يكن يلبس مسوح
القديسين أو يرائى أحدا بالنسك والعبادة : كان اذا شهد
اجتماعا وحضرت الصلاة أم الحاضرين فى الصلاة الجامعة ،

ولم يشاهد قط في محفل على صورة تخالف ما ينبغى للرجل المسلم الذي يقود في معترك السياسة أمة اسلامية ، ولكنه لم يشاهد كذلك متخذاً من التدين مراسم للظهور والمראה في حدود ما يليق بالزعيم ، ولا التزام لحدود غير تلك الحدود

ولم تقيده الزعامة بقيد تأباه السماحة وسعة الصدر وآداب الاجتماع ، فكان من زواره مسلمون وغير مسلمين ، وكان يزور من يزوره ويرى في بيوت الطوائف الاخرى كما يرى أناس من أبناء الطوائف الاخرى في بيته ، وزياراته أو زياراتهم في جميع الاحوال ليست بالشاغل الذي يستغرق فراغ وقته كما يتفق لرجل السياسة الذي تملأ تكاليف المجتمع حيزاً كبيراً من وقته ، بل هي زيارات الرجل الذي لا يريد أن ينقطع ما بينه وبين الناس ، ولا يريد كذلك أن تقطعه تكاليف المجتمع عن أمانته الكبرى : أمانة السهر على تكوين أمة وحكومة

وكانت علاقاته بمعارفه ، وبمن يلقاها في عمله ، علاقة خلت من التكلف ، وربما بدا عليها من أجل ذلك مسحة من الحشونة ، أو بدا عليها نقيض الحشونة حين يخشى أن يحسبه الناس خشناً في معارضته ، فيخفض من جناحه ويلين في حديثه ، وقوة معارضته في ذلك الحديث باقية في مدلوله ومرماه

زواجه

صرفته الحياة العامة عن الزواج حتى بلغ الأربعين ، فلما

تزوج في تلك السن كانت لزواجه قصة «جناحية» تطابق
ديدنه المطرد في حياته العامة . فان سفير الوحدة قد تزوج
من فتاة زردشتية ، وأبت الاقدار الا أن يكون زواجه آية
أخرى من آيات هذه السفارة التي صمد عليها ما استطاع
كان جناح رجلا وسيفا وظل شيخا وسيفا معتدل القامة
الى أن توفي وهو يجاوز السبعين

كان علما بارزا في جلسات المؤتمر والعصبة التي انعقدت
في سنة ١٩١٦ ، وكان يقود العصبة ويقود المؤتمر ويدير
الحوار ويرد على كل سؤال ويخرج من كل معركة حامية
بالحجة الناصعة والرأي المسموع ، وكان السير «دنشا بتيت»
أغنى أغنياء الفرس في بومباي يشهد الجلسات ومعه فتاته
الذكية الحسناء رتن بتيت ، فأعجبها الرجل الوسيم وأعجبها
الخطيب المبين ، وهامت به وفاتحته بحبها وسمحت لها
تربيتها الاوربية أن تعرض عليه الزواج وهي دون العشرين
وفوجيء جناح باقتراحها وراجعها في الأمر وبصرها
بالعواقب التي تترقبها عاجلا وأجلا من جراء هذا الزواج مع
اختلاف الدين وتفاوت السن ومحظورات التقاليد ، فزادتها
المراجعة اصرارا وقالت له انها لا تجهل هذه العواقب وأولها
الحرمان من مال أبيها والحرمان بعد ذلك من الميراث ، فلما
آمن أن يقال انه قبل زواجها لمالها وأعلمها انه يتوقع ما
توقعته من حرمانها ، قابلت هي هذا النبيل من الرجل الذي
أحبته باعلان اسلامها ، فنشرت الصحف انباء عقد الزواج
واسلام الفتاة في وقت واحد ، وقامت القيامة عليهما وثبت
لها الزوجان في غير مبالاة

ساقهما أهلها المقتدرون الى القضاء ، وودوا لو يدعون
قصورها لولا ان سنها بشهادة الميلاد تخولها أن تختار
زوجها بارادتها

ولما أراد القضاء أن يخرجه لينفض يده من هذا القران
المغضوب عليه ، واتهمه على ملا من شهود الجلسة بأنه يجرى
وراء الفتاة الغنية طمعا في مالها ، لم يشأ أن يجيب وترك
لها الجواب ، فقالت للقاضي مغضبة انه لم يجر وراءها ولم
يجر وراء مالها وارتضى أن يبني بها وهو يعلم أنها ستحرم
من ثروة أهلها ، وهي تعلن في ساحة القضاء وفاقا لما أراد
أنها قد استغنت عن معونة أهلها كل الاستغناء

ومن الاخبار القليلة التي وردت متفرقة في سيرة القائد
الأعظم نعلم ان هذه الزوجة النبيلة كانت جديرة بزوجها
في أنبل مناقبه وهي الشجاعة والاستقلال بالرأى والكرامة ،
فهان عاينها أن تنبذ الملايين في سبيل الرجل الذي أحبته ،
وهان عليها أن تكبت حياها وهي تبرئه من اغوائها وتجهر
في ملا من شهود الجلسة انها هي التي عرضت نفسها عليه
ومن قصة طريفة تناقلها الهنود يومئذ تتراهي لنا الفتاة
الغضة جديرة بزوجها في بديهته الحاضرة وصراحته النادرة
وصلابته القوية وجوابه السريع ، فانها - مع تربيتها
الأوربية الكاملة - كانت تأخذ نفسها باحترام عادات قومها
وتنكر النزول عن سمت البلاد حين يكون النزول عنهما نزولاً
لأصحاب السيطرة الأجنبية ، ودعيت مع زوجها الى وليمة
في قصر الحاكم العام فحيته حين قدمت اليه بالتحية الهندية
ولم تنحن متراجعة على طريقة الاوربيين في مقام التعريف لأول

مرة ، فامتعض الحاكم العام واغتتم فرصة التحدث اليها فقال لها فى لهجة السيد الموتور : « ان زوجك يا سيدتى لذو مستقبل عظيم امامه فلا تفسديه عليه . » والمثل يقول :
فى رومة اصنعى كما يصنع الرومان . قالت غير متهيبة :
« وهذا الذى صنعت . » فى الهند تقدم التحية كما يقدمها الهنود ! »

ودعيت الى وليمة اخرى فى القصر فاستطرد الحديث الى الكلام عن البلاد الالمانية وراح اللورد ريدنج يقص شيئا من ذكرياته ايام التلمذة هناك . ثم قال : اننى مشوق الى زيارة تلك البلاد واخشى الا أستطيع . قالت السيدة جناح :
« وله ؟ » فعاد اللورد ريدنج يقول : « ان الالمان اليوم لا يحبوننا ، وهم نافرون منا بعد الحرب ، وفى الزيارة خرج على الانجليزى الذى يذهب اليهم » قالت على الاثر فى شىء من شيطنة الشباب : « عجباً ! وكيف اذن حضرت الى الهند فى هذه الايام ؟ »

موت زوجته

وسعد الزوجان على غير الشائع عن زواج الحب او زواج التفاوت بين الزوجين فى السن والعقيدة والنشأة الاجتماعية ، ورزقا بنتا سميها « فينا » ثم نكب البيت السعيد بموت ربته وهى دون الثلاثين ، وراح جناح فى تربية الطفلة الصغيرة فابقاها عند جدتها لامها فادخرت له الصروف فيها نكبة نكات جرحه الذى لم يندمل بعد نكبته فى امها ، فانها نمت فى بيثة زردشتية فتزوجت من احد ابناء ملتها على

الرغم من تحذير أبيها ، وانقطعت الصلة بيته وبين الفتاة
بقية حياته

وقد أوغلت النكبة في قلب الرجل العظيم ايغالا أو شك
أن يكون مميتا ، ولكنه لم يسمع شاكيا ولا متضجرا ولم
يشاهد واجما ولا متوانيا في مهمته القومية ، وكل ما تغير
منه بعد النكبة انه أفرط في التدخين وانه راح يفرق آلامه
في متاعبه السياسية ومساغيه القومية ، فاتخذ من النكبة
القاصمة مصلحة له ولقضية بلاده ، وخلق من الحزن دافعا
يضاعف القوة وأبى عليه أن يثقل همته فيضعفه ويفت في
عضده

ومن المصادفات التي قل أن تتوارد في حياة زعيم كما
تواردت في حياة جناح ان الوقت الذي ودع فيه برنامج
الوحدة هو الوقت الذي انتهت فيه آية الوحدة في بيته
وأسرته . فلم تكن سياسته بعد سنة ١٩٢٩ التي توفيت
فيها زوجته الا تباعدا مستمرا عن فكرة الوحدة واقترابا
مستمرا من برنامج التقسيم والفصل بين الدولتين ، وقد
عن لبعضهم ان الحادثين مرتبطان - حادث الأسرة وحادث
السياسة الهندية - ولو لم تكن الحوادث السياسية في
انجلترا وفي الهند وفي العالم كافية لتفسير برنامج
الانقسام لا يمكن القول بأن انقضاء الزواج بين الزعيم
المسلم والفتاة الزردشتية كان له شأن في التعجيل ان لم
يكن في التعديل والتحويل ، ولكن الأحوال النفسية التي
تتعاور النفس في أمثال هذه الأحوال عودتنا ان تكون
الذكرى بعد الموت أقوى من العلاقة الحية ، فلو قيل ان ذكرى

القرينة المحبوبة كانت هي الأصرة المتجددة بينه وبين
السلالات الأخرى بعد موتها لكان هذا أحرى بالقبول من
القول عن أثر الوفاة في تفاقم سياسة الانفصال ، فضلا عن
أن الزوجة كانت مسلحة وعاشت مع قرينها مسلحة لا تثنيه
عن شيء في أعماله السياسية

أخلاق جناح

والقول في أخلاق جناح كالقول في حياته الخاصة . فما
كانت له أخلاق بين الأقلين تباير أخلاقه بين الأكثرين ،
وما كان دأبه في معاملة أعضاء الهيئات الحزبية أو الحكومة
يخالف دأبه في معاملة كاتبه أو ضيفه في بيته
صراحتة هنا هي صراحتة هناك ، واستقلاله في رأيه هو
استقلاله في ذوقه ، ونزاهته هي نزاهته حيث كان
وقد وصفه عارفوه ، شخصيا وسياسيا ، فتكلموا عنه
بلسان واحد يصدق على الحالتين
قال الدكتور ريدي Reddi : « انه فخر الهند وليس
خاصا للمسلمين » ، وقال سير مودي Modi : « انه شجاع
مستقيم لا يبحث عن السمعة وهو مثال نادر للبراعة من
نفاق السياسة »

وقال الصحفي البرهمي نهال سنغ Singh - وقد أذاع
بعضهم ان تشرشل يسخر جناحا لخدمة غاياته - : « ان
شعوري ان محمد علي جناح قد يكون هو المسخر لشرشل
وانه يتعالى بنفسه ان يجعلها آلة لذلك الوزير السابق من
المحافظين »

وقال مستر ارثر مور محرر الاستيتسمان : « ان صعود

نجم جناح فى المجلس الاسلامى لا تكفى لتأويله براعته فى التنظيم والتدبير ، ولكنه كما علمت من المسلمين جزاء له على سيرة طويلة فى الحياة العامة تحققت فيها نزاهته عن اغتنام الفرص لنفسه ، واذا كان مستر غاندى معصوما من غواية المال لأن المال لا يغويه فمستر جناح معصوم من غوايته لانه يملك منه ما يكفيه ويغنيه ، واستقلاله الذى تربى عليه فى خدمة القانون خير كفيل له بالاستقلال عن المغريات »

وقال الدكتور السيد حسين : « اننى على معارضتى للباكستان لا يسعنى الا ان اصرح بان جناح هو الرجل الوحيد فى الحياة العامة الذى هو ارقى ما يكون عن الشبهات . انك لا تستطيع ان تشتريه بالمال ولا بالهبة ولا بالمنصب ، ولم يستفد قط شيئا من البريطان ، وما هو من رجال هذا المعدن ، فأخلاقه تسامى فى الرفعة أرفع الأخلاق التى أثرت عن زعيم فى الهند كيف كان ، ولم يقبل قط شيئا من البريطان سواء من النفع أو اللقب ، وان كان غاندى قد قبل شيئا منهم بعد حرب البوير ، وتعلم جماهير المسلمين أن جناح هو الرجل الذى لا يعوزه المال ولا يستهويه طمع السلطان »

ولم يسع هوراس الكساندر صاحب كتاب « الهند منذ كرييس » أن ينكر عليه الألمعية وتوقد الذكاء ، غير أنه أراد أن يعيبه بالتناقض فدفع عنه أشهر التهم التى يرددها خصومه لأنهم لا يجدون تهمة غيره تلقى من الناس حظا من الاصغاء، وهى أنه حريص على نظام معيشته وهندامه ولهذا

عارض سياسة المؤتمر « غير الدستورية » ٠٠٠ فإذا بصاحب
الكتاب يعيبه بالتناقض لانه دفع بالعصبة فى طريق المقاومة
« غير الدستورية » وحولها من الوقار « الارستقراطى » الى
الجلبة الشعبية !

وغاية ما ذهب اليه نهرو فى تفسير خطته ان نجاحه
المتأخر قد لواه عن قبول الآراء والاقتناع بما يقترح عليه .
فلما سأل لورد مونتباتن فى محادثة بينهما عن رأيه الخاص
فى جناح موجزا فى كلمات قال : « انه رجل تأخر عليه
النجاح ، ولو ان الحكومة البريطانية تركته حتى يطلب هو
ما تطوعت باعطائه لكان أقرب الى الاعتدال »

ونهر ورجل فاضل لا يستجيز لضميره أن يواربه ،
ولكننا لم نفهم ما يعنيه بالنجاح المتأخر ، فان جناحا نجح
فى صناعة المحاماة وهو دون الثلاثين ، وكان المؤتمر على
استعداد لانتخابه رئيسا له ورئيسا لأول وزارة يؤلفها ،
ورأسته للعصبة وهو فى نحو الخمسين هى تتويج نجاح
وليست أول نجاح ، وكلام نهرو - بعد - لا يعيب الرجل
على أى وجه صرفناه



وقد راجعنا ما قيل عن جناح فى كتب قصرت على ترجمته
وكتب أشارت اليه فى سياق الحوادث ، فلم نقرأ فيها وصفا
لحياته الخاصة الاصح أن يقال انه كذلك وصف لحياته العامة ،
وانه بهذه الصفات جميعا منذور لغير الأثر والانانية ،
فصفات الخاصة والعامة مما يوقف على خدمة الأمم ولا
تستأثر به خدمة فرد من الأفراد ، غير مستثنى منهم جناح

وفاء حتى الممات

قال جناح يوم المنسادة بقيام دولة الباكستان : « ان الباكستان وسيلة وليست بغاية ، وان قيامها ابتداء عمل ليس له انتهاء

وجاء الواقع بحوادثه التي لا تنتهى ومطالبه التي يأخذ بعضها برقاب بعض فأعاد ما قاله القائد الأعظم بالفلسان وراح القائد الأعظم يعمل فى رئاسة الدولة كأنه لم يعمل شيئا قبل ذلك وكأنه مطالب بعد اليوم بأن يعمل كل شىء

وكان عمله من قبل مرهقا معنتا فأصبح - بعد النجاح - أشد ارهاقا وعنتا

وهذا هو النجاح الذى تتشبث به أحلام بنى آدم وحواء :
اعظم ما يكون أقسى ما يكون على الناجحين

وقد حدث لليائسين كثيرا ان يخعوا انفسهم ، ولم يحدث لناجح انه يخع نفسه اشفاقا من نجاحه . وما أغناه عن ذلك ؟ ان النجاح لقمين ان يعمل ما لم يعملوه

الا أن القائد الأعظم كان يرهق نفسه قبل قيام الدولة، وعنده ذخيرة من القوة يسعفها مدد من الصحة والشباب
وأما بعد قيام الدولة - وهو فى السبعين - فالجهد فى ازدياد والطاقة فى نقصان

وعلم أطباؤه هذا ولم يجهله أحد ، فما هو من الحفاء بحيث يختلف فيه علم الأطباء وعلم الدهماء
بل علمه القائد الأعظم قبل ان يعلمه طبيب ، وكأنه لم

يعلمه ولم يقع في خلده أن يعلمه ، فلم يستمع الى تحذير
ولم يحفل بنذير

وكلما وعد أن يمسك عن العمل ، أو أن يجعل لعمله
حدا ، غلبته شهامة قلبه فنسى الوعد الذي لم يتعود قط أن
ينساه ، وأكب على عمل جديد ، تعقبه أعمال جديدة ، لأن
الكف عن العمل - وهو ناظر الى مطالبه - يتقاضاه من القلق
والجهد أضعاف ما يتقاضاه شغلان فكره بالأعمال
وعذره لنفسه سائح معقول

الا أن الشيخوخة في السبعين ، ومعها اعياء القلب ،
لا تسيع ذلك العذر ولا تعقله ، ويستوى عندها من يجترى
على حكمها القاهر معذورا أو غير معذور

الى أن بلغ الكتاب غايته وحجم الأجل في يوم من أيام
الصيف التالي لقيام الدولة الفتية ، فشوهدت في سماء
العاصمة طائرة قادمة من « بلوخستان » في ساعة الغسق ،
قل من كان يعلم ما فيها تلك الساعة ٠٠٠ وفيها القوة
المحركة للدولة كلها ، جاءت الى عاصمتها لتصبح رفاتا بعد
ساعات

وكان حرس المطار من العارفين بوديعة تلك الطائرة
المدلجة في الظلام ، فأدوا لها التحية ، وشاهدوا - لفرط
دهشتهم - آخر حركة « رسمية » لذلك البنيان النحيل
الذي ما كف يوما عن الحركة : يتحامل على نفسه ليرد
التحية وهو بين الحياة والموت

وبلغت الساعة العاشرة منتصفها حين أذن القضاء بختام

تلك الحياة ، وسرى النبا بطيئا بطيئا كأنه ينوء بحمله
الثقيل ، وخف الوزراء الى الدار يمشون كالاشباح بين
حجرات غارقة فى الضياء

وعجت الدار بالنشيج المختنق ، وانفجر النشيج بعد
مغالبة لم تفلح ، فترامى فى جوانب القصر رجال أشداء ،
جبابرة من جنود الحرس فى موكب القائد المسجى على
فراشه . تهودوا أن يذهبوا به وأن يعودوا به من حيث
ذهبوا ، وعلموا انهم عما قليل سيذهبون به الى حيث
لا عودة ، وسيذهبون به ولا يسمعون له صوتا ، وقد عهدوا
له - حيث ذهب - صوتا مسموعا يتجاوب صدهاء فى الدنيا ،
ويصفى اليه المنصتون فى كل مكان

والى جوار الجنة ظل لا يهتز ولا ينشج ولا يهيم بالنشيج :
تلك هى الأنسة الشقيقة فى السواد ، وهول الصمت فى
عينيهما الجامدتين أشد من هول الدموع فى أعين أولئك المردة
الناحبين

وما هو الا أن سرى النبا المرهوب فى أنحاء العاصمة
حتى غص الطريق بالوافدين : مائة ألف ، مائتان ثم اشتملت
الطرق المحيطة بالدار كل من فى المدينة من قادر على المسير ،
لم يتخلف رجل ولا امرأة ولا طفل صغير

وفتحت الابواب للجموع المشيعة تلقى النظرة الاخيرة على
الوجه الذى لن تراه بعد اليوم ، فتعاقبت فى نظام لم ينظمه
أحد غير ما فى باطن النفوس من خشوع ، واستند بعضهم
على أكتاف بعض بيكون ، والعج قلوبهم بالحزن وفجر عيونهم
بالدموع تلك الابتسامة التى ارتسمت على الوجه القوي

الوقور ، رسمها الموت حيث ضنت متاعب الحياة أن تتركها
هنالك مرتسمة عليه كل يوم

من قال ان النقيضين لا يجتمعان فليمدد بصره الى دخيلة
النفس البشرية فى ساعة من ساعات الهول : تصدق ولا
تصدق، وتعجب ولا تعجب، وتحس الهول وكأنها لا تحسه ،
أو كأنها تتحداه بالامل الذى يتراوح فيها بين الضمور
والظهور

قد مات القائد الأعظم . . . يا للهول !

هل مات القائد الأعظم ؟ كلا . انه لم يموت . . لعله
وهم ، لعله خبير كاذب ، لعلها معجزة تتجلى بعد حين . . .
من قال ان رجلا كهذا يموت ؟

وفى ساعة الهول هذه كانت الآية الكريمة فى كل خاطر
تفرق بين الشك واليقين «وما محمد الا رسول قد خلت من
قبله الرسل . افان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، . . .
وكانت حوقلة المحوقلين عصمة الحائرين ومنفس المكظومين ،
لا حول ولا قوة الا بالله . يسمعها السامع ويجيب بهسا
المجيب

وفرغت المنابر وأصوات الاذاعة فى جوانب الباكستان
لتلاوة القرآن الكريم يتخللها من ساعة الى ساعة اعلان النبأ
والترحم على الفقيد العظيم

قال زائر لعاصمة الباكستان بعد الوفاة ببرهة غير
قصيرة : اننى كنت أعبر الطرقات وأحسب اننى سمعت
القائد الأعظم فى رؤيا حلم . لاننى كنت أشعر بمحضره

حيث مشيت وحيث نظرت ، ومن العسير على أن اصمدق
بموت انسان يطل على وجهه من كل مكان

ان حداد الباكستان على جناح كان حداد أمة على أبيها ،
وكان في العيون والوجوه والقلوب ، ولكنه وفاء ساعات أو
أيام أو شهور ، ثم تسكن النفوس الى القضاء كما قال
شاعرنا الحكيم :

وللواجد المكروب من زفراته

سكون عزاء أو سكون لغوب

أما الوفاء الخالد ، الجدير بالزعيم الخالد ، فهو تخليده
في عمله وأمله ، وتصديق وصاياه فيما بقي من تراث مجده ،
وانه لتراث حي ما بقيت أمته كما أرادها وتمناها ، وما فهم
الأوفياء هذا المعنى من الوفاء ، وأيدوه بالعزم والصبر
والولاء

خريطة الباكستان وبلاد الهند



الباكستان بين الماضي والحاضر

مفارقة متعمدة

منذ سنتين (أى فى سنة ١٩٥٠) صدر فى انجلترا كتاب باللغة الانجليزية اسمه « خمسة آلاف سنة من تاريخ الباكستان » لمؤلفه (ر. م. هويلر) Wheeler مدير الحفريات السابق فى الحكومة الهندية

مفارقة بينة على غلاف الكتاب ، واعتراف فى أول سطر من سطور المقدمة بتعمد هذه المفارقة ، لأن أمم الارض جميعا كانت تعلم يوم صدور هذا الكتاب ان الباكستان دولة جديدة لم يكد يمضى على انشائها أربع سنوات ، وانها جديدة باسمها كما انها جديدة بنشأتها ، لانه اسم لم يكن معروفا فى لغة من اللغات قبل الربع الثانى من القرن العشرين

جاء فى السطر الاول من مقدمة الكتاب « ان عنوان هذا الكتاب مفارقة متعمدة ، ولكنها تشتمل على حقيقة أساسية »

أما هذه الحقيقة الأساسية فهى ان البلاد التى شملتها الباكستان الآن - أو شملت معظمها - هى الهند التى عرفتها الأمم قديما ثم أطلقوا اسمها على البلاد الهندية كلها فى القرون الأخيرة . فلم يعرف الفرس والصينيون واليونان والعرب شيئا يذكر عن داخل البلاد الهندية ،

وكلما وصلوا اليه وهمهم أن يعرفوه هو مداخل الهند الغربية على بحر العرب ومداخل الهند الشرقية على خليج البنغال ، وهذه على وجه التقريب هي دولة الباكستان اليوم قصد السياح والتجار والغزاة الى تلك الشواطئ قبل آلاف السنين ، وحملوا منها السلع والمحصولات الى أرجاء العالم شرقاً وغرباً ، وتبين من « الحفريات » الحديثة ان الحضارة على تلك الشواطئ معرقة في القدم ، وانها عرفت فنونا من الأبنية والمصنوعات تشهد لأهلها بالحبرة في العمارة والصناعة وتترجم عن ثقافة دينية متقدمة بالقياس الى المعتقدات التي كانت شائعة في تلك البقاع قبل الميلاد بثلاثة آلاف سنة ، ولا يزال علماء الحفريات يكشفون بين آونة وأخرى عن معلومات تتم مواضع النقص في ذلك التاريخ العتيق

ويؤخذ من المعلومات المكشوفة ومن التواريخ المعروفة ان مسالك التجارة والسياسة بين الهند والعالم الغربي قد اطرقت في سبلها المطروقة التي عهدتها الناس الى أواخر القرون الوسطى ، وهي سبل البحر الى العراق واليمن ، ثم سبل البر منها الى مصر والشام

وقد كانت الدول الكبرى في العصر القديم تتسابق الى السيادة على تلك السبل ، فبسطت فارس سلطاتها على اليمن لتجمع بين يديها سائر السبل من شبه الجزيرة العربية ، وأراد الرومان أن ينتزعوا هذه السبل جميعاً فجردوا حملاتهم على العراق واليمن ، وقنعوا آخر الأمر بالسيادة على منتصف الطريق ، فتكفلوا بحماية الأمراء الغساسنة

فى صحراء الشام ، ورشحوا للملك فى مكة قبل الاسلام
زعيمًا من قريش يدينون له بالطاعة فى ظل قيصر ، ولم يكن
فى طاقة قيصر أن يفرض الملك عليهم بالقوة فهدهم باغلاق
ابواب الشام فى وجوههم ، وأمر الغساسنة بالترصد لهم
على تلك الابواب ، وحال ضعف الدولة الرومانية فى ذلك
العصر دون مرماها فى جوف الصحراء

وهكذا استقلت مكة بطريق التجارة من الهند الى اليمن
الى مصر والشام

وهكذا نسج التاريخ احدى موافقاته التى تمتد من مئات
السنين قبل الدعوة المسيحية الى مئات السنين بعد الدعوة
المحمدية ، وجاز لمن شاء أن يقول ان الباكستان أقامت مكة
قبل الاسلام، وان مكة - بعد الاسلام - قد أقامت الباكستان
أراد الفراعنة من قديم الزمان ، ثم أراد القياصرة بعدهم،
أن يجعلوا البحر طريقًا لتجارة الهند فغلبتهم سفينة
الصحراء ، وانتظمت رحلة الشتاء ورحلة الصيف على أمواج
الرمال كما كانت قبل ملك القياصرة والفراعنة ، واستقرت
لهما مرحلة وسطى فى منتصف الحجاز ، فذاك حيث قامت
مكة فى الجاهلية الأولى ، تتلقى قوافل الشتاء من الجنوب ،
ثم تلقى بها مع قوافل الصيف الى الشمال

الباكستان الجديدة

وبعد سبع وأربعين وتسعمائة وألف سنة من الميلاد
المسيحي ، ولدت الباكستان الجديدة باسمها ، والجديدة

بأسباب وجودها ، إلا سببا واحدا غير جديد عليها ، وهو
الدين الذى ظهرت رسالته فى مكة منذ أربعة عشر قرنا ،
ولولاه لكان للشرق كله تاريخ غير تاريخه المعلوم

معجزة من معجزات الايمان التى لا تنقضى مع الزمن :
معجزة تتحدى التجارة ، وتتحدى المنفعة ، وتتحدى سلطان
الدول ، وتتحدى المعقول والظنون ، وتتغير السبل ، ويتغير
السالكون فيها ، ويبقى الايمان فيصنعها معجزة خارقة لم
يصدق بها أحد قبل وجودها ، ثم توجد فيصدق بها من
يرى ويسمع ، وتصبح بعد ذلك سندا للعقول التى عرفت
بها الممكن والمستحيل ، وقد كانت تخلط خلطها الذريع بين
الممكن والمستحيل

امكن ما لم يكن فى الامكان

شجرة تحمل تسعين مليوناً من الفروع الآدمية ، تنقطع
جذورها جميعا ، وتنغرس جذورها جميعا ، ولا تذبل ولا
تفنى ، بل يسرع اليها النماء والايراق ، من حيث قدر لها
الذبول والفناء

معجزة فى زراعة الشجر

أما فى زراعة الأمم فوصفها بالاعجاز قصد واعتدال
ولو كانت مع الزارعين هنا كل معداتهم لعظمت المشقة
وناءت بها كواهل العصابة أولى القوة ، ولكنهم كانوا
يفرسون المعدات كما يفرسون الفروع ، ويخلقون التربة
كما يخلقون غروسها وثمارها ، ولا قبل لهم بالانتظار ،

يوما أو بعض يوم ، اذ كل يوم جديد ، يأتيهم بقطع جديد ،
ووصل جديد

لقد حسبوا عدد المهاجرين الى الباكستان فبلغوا ثمانية
ملايين : حسبوا عدد المهاجرين وخدمهم كأنما كان سكان
الباكستان الذين بقوا فيها قد خرجوا من عداد المهاجرين
المتنقلين ، وما بقي منهم أحد على قراره الذي استقر عليه
قبل نشأة الباكستان ، وما كان منهم أحد الا وهو في حكم
المهاجر من مكان الى مكان ، المنقطع عن منبت في طريقه الى
منبت ، المائل على أبواب حكومته يسألها عن مصيره ومصير
مورده ومصدره ، وكلما أشير له الى مصير اذا به قد تحول
وتحول معه ألف مصير ، والمدد متلاحق متسابق ، والسكوت
عنه يوما مشكلة تتبعها مشكلات

دوامة في اعصار ، ولا سبيل الى الدوار
لان الدوار غرق عاجل بغير قرار



وقد قيل ان الاخفاق صدمة وان النجاح عبء يكبر كلما
كبر النجاح

وأطوار الأمم تتوالى بالشواهد على صدمات الاخفاق
وأعباء النجاح في مختلف العصور . أما في عصرنا الحاضر
فهذا المثل أقرب الأمثلة على أعباء النجاح التي تخف الى
جانبيها صدمات الاخفاق

وقد كان الزعماء المشرفون على بناء الدولة الجديدة

ينتظرون عونا موعودا ويتأهبون للمتاعب كما قدروها .
فأما العون المنظور فلم يأت، وأما المتاعب فقد جاء منها ما هو
مقدور وما ليس بمقدور

كان للباكستان حصة من أموال الدولة يقضى اتفاق
التقسيم بتسليمها اليها ، فلم يتسلموها
ونقلت اليها فى الطريق بعض الودائع التى لا خير فى
احتجازها ، فاغتالتها الطريق نهبا واتلafa قبل أن تبلغ
الحدود

وخرجت الباكستان من القسمة بظلم المكان بعد ظلم
السياسة ، فكان نصيبها من ودائع الارض ، ومن الخيرات
التى لا تنقل ، أصغر النصيبين ، وكادت أن تخلو من
المصانع والمدارس كما خلت من أنفس المناجم وأصلح
الموانئ ، ولم تظفر بحصة قط فى تراث التقسيم الا كانت
هى المرجوحة المزهود فيها من الحصتين

أما المتاعب التى جاءتهم على غير انتظار ، أو على خلاف
ما قدروه ، فأولها متاعب الطابور الخامس ماجورا وغير
ماجور ، فاستغل الدساسون ربكة القلق التى ساورت
أصحاب المصالح وزينوا للضعفاء منهم أن ينفصلوا باختيارهم
لان علاقاتهم بأقاليم الهند أوثق من علاقاتهم بأقاليم
الباكستان ، وأشاع بعضهم ان الحكومة فى صدد الغاء
اللهجة البنغالية التى يتكلمها أكثر من نصف السكان ،
وأشاعوا ان القبائل ستحكم على نظام جديد ، وهى تلك
القبائل التى لم تعرف نظاما للحكم منذ آلاف السنين غير
نظامها الموروث ، وأشاعوا ان الحكومة سترفض الدين

و « تتفرنج » فى تقرير قواعد التعليم والقضاء ، وكان على ولاية الأمر أن يلاحقوا هذه الاشاعات بالتكذيب العملى - تكذيب الوقائع الملموسة - قبل أن تستفحل وتستعصى على التدبير ، لأن تكذيب الأقوال فى هذه الاحوال قلما يصغى اليه

وعرف القائد الأعظم أن العدو الأكبر فى هذه الغاشمية المتراكبة هو الرشوة والسوق السوداء ، فضرب على أيدي المفسدين من الموظفين والتجار بغير رحمة ، ولم يكن له مناص من قمع الرشوة والعمل على استئصالها من دواوين الحكومة ، لأن التجارة الصادرة كلها قد آلت الى أيدي الدولة ، فلا أمل فى عمار الدولة مع العبث والفساد فى الدواوين

ولا نطيل فى سرد المتاعب ولا فى سرد الجهود التى تغلبت عليها ، فقد تغنى عن الاطالة هنا مقابلة الأرقام فى باب واحد بين السنة الأولى بعد التأسيس والسنة الخامسة ، إذ ارتفعت موارد الدولة من نحو ستمائة وسبعين مليون روبية الى نحو ألف ومائتين وسبعين مليوناً ، وزاد الوارد على المنصرف ، بعد أن كانت ميزانية الدولة منصرفاً لا مورد له على الأكثر غير القروض

أما نظام الحكم فى الدولة فهو قائم على أساس الديمقراطية والدستور، وأن تكون الاقاليم مستقلة فى حدودها مشتركة فى الشؤون التى تتوحد فى الدولة وهى شؤون الدفاع والسياسة الخارجية وتدبير العملة ، وأن تسأل الوزارة أمام الهيئة النيابية فى العاصمة ، ويختار كل اقليم هيئته

النيابية التي تراقب حكومته ، وسيحرص الدستور على تمثيل المصالح في جميع الطبقات ، وينص على تخصيص الدوائر لتمثيل الصناعة والزراعة والتجارة والعمال ومعاهد التعليم العليا ، ويعطى المنبوذون من البرهميين الذين فضلوا الإقامة في الباكستان على الهجرة الى الهند حقا يخولهم أن ينفردوا بانتخاب ممثليهم ، وكذلك يعطى هذا الحق للمسيحيين حيث يكمل لهم عدد مستقل بالانتخاب

والعصبة الاسلامية اليوم هي الجماعة السياسية التي تتمثل فيها آراء القادة في الباكستان ، ولكنها لا تتألف من حزب واحد في مذاهب السياسة والاجتماع . اذ يوجد فيها غلاة الاشتراكيين كما يوجد فيها غلاة المحافظين، ويوجد فيها من يحاربون رأس المال ومن يؤيدونه ويستديمونه ، ويوجد فيها على الاغلب الاغصم من يرون ان الاسلام طريق ثالث بين طريق رأس المال وطريق الشيوعية ، ويمكن أن يقال ان العصبة الاسلامية تعبر عن مبادئ المؤمنين بقيام دولة الباكستان، خلافا لمن كانوا يعارضون قيامها ويتخذون لهم وجهة غير وجهتها ، ولهذا تعتبر العصبة أن من يعارضونها من خارجها معارضون لتكوين الدولة في أساسها، وتسمح بالمعارضة في داخلها ولا تسمح بالمعارضة من خارجها ، ونحسب أن الحذر من هذه المعارضة في دور التكوين وشيك أن يتسهل بعد تصعيب ، وأن يكون زواله علامة على زوال الخطر على كيان الدولة وسلامة المجتمع، فلا تصبح معارضة العصبة معارضة للدولة والامة ، ولا

تحتاج أحزاب السياسة الى رقابة غير رقابة الراى العام



ليس فى وسع منصف أن ينظر الى العمل الرائع الذى تم فى هذه الدولة الناشئة خلال خمس سنوات بغير نظرات الاكبار ، وليس فى وسع منصف أن يشكر عليهم صدقهم واقتدارهم وحسن تصريفهم للأمر التى تجل أحيانا وتدق أحيانا عن التصريف ، وليس فى وسع منصف أن يضمن عليهم بالمعاذير فيما عرض لهم من النقص وتورطوا فيه من الاخطاء ، وليس فى وسع منصف أن ينفى عنهم كل نقص ويعصمهم من كل خطأ ، فمن يتكلم عن العصمة لا يتكلم عن انسان

الا أن الشهادة التى هى أعظم وأشرف من كل شهادة لهؤلاء القادة هى التعالى عن استغلال الغرائز الثائرة تمكيننا لأنفسهم فى مناصب الحكم وتمهيدا للبقاء فيها وتغشية لأعين الجماهير عن التنبه لما يقعون فيه من الاخطاء ويؤخذ عليهم من العيوب

ففى مثل هذا الموقف ، بل فى أهون من هذا الموقف ، يندر أن نرى زعيما يتعفف عن كسب « الحماسة الشعبية » له ولسلطانه باذكاء الضغينة واثارة العصبية وتغذية الكراهية بين الطوائف والاقوام بكل ما يلعب الخواطر ويلهب النفوس ويفتح آذانها كل يوم لما يلقيه فى روعها ، ويغلق آذانها كل يوم عن سماع الحق والاصغاء الى النقد الصحيح رأينا هذا فى دولة النازيين ، وفى دولة الفاشيين ، وفى

دولة الشيوعيين ، ورأينا زعماء هذه الدعوات يحرضون طائفة على طائفة ، وحزبا على حزب ، وجيلا على جيل ، بل رأيناهم يحرضون أقوامهم على العالم بأسره مصوريه لهم في صورة العدو الذي يتحفز لهم ويتربص بهم ويتحين الفرص للانقضاض عليهم ، ولا يبالون ما وراء هذا الغل الدفين من شر يحيق بهم وبمن حولهم ، ولا يسلم منه قريب ولا بعيد

فمن الشهادة العالية لقادة الباكستان انهم تغلبوا على هذا الاغراء مع وفرة المغريات وكثرة العداوات ، وانهم لم يتعففوا عن اثاره الغرائز وكفى بل عقدوا العزم على تصفية القلوب وغسل الصدور ومحو التراث ، وجعلوا هجيراهم أن يقربوا بين المفترقين ويفثاوا سورة الغاضبين، واستهدفوا من جراء ذلك للغيلة والايذاء ، ممن حسبوا طيشا منهم وجهالة ان حسم العدا والبغضاء ممالاة للاعداء

هذه شهادة لهم ارفع من كل شهادة بالخبرة والاقتدار على التصرف في الازمات والمفاجآت ، لانها تسجل لهم انهم قادة امة وليسوا مجرد حكام محترفين للسياسة ، وان اخلاصهم لا امانتهم مقدم عندهم على الاخلاص لمناصبهم ومنافعهم ، وهي روح شماء لولاها لما أنجزت الباكستان بعض ما أنجزته في أقل من خمس سنوات ، وبمثلها في الأمم الهندية والاسيوية على العموم يرجى أن تنحل العقد الشائكة وتنحسم المنازعات المتشعبة ، فان أمم الشرق أحوج الى القوى التي تبدها تلك العقد والمنازعات على غير جدوى، وأحق أن تتوفر بها على لم شملها وجمع عزائمها والتعاون

فيما بينها على اداء رسالتها الانسانية واللحاق بركب الحضارة الذي تخلفت عنه عدة قرون

دروس نافعة

ما اكثر معارض البحث والنظر في مسيرة الباكستان وسيرة قائدها الاعظم : كلها معارض بحث ونظر ، وكلها دروس تجدد آراء الدارسين فيما فهموه قديما من اسرار المجتمعات وظواهر الدول التي خيل اليهم انهم فرغوا منها أو ينسوا من الفصل فيها ، ومنها ما هو فيصل التفرقة في مسألة المسائل جميعا وهي مسألة العالم ومصيره أو مسألة الجماعات البشرية وبواعث تكوينها وتماسك اجزائها

هل الحكم كله في مسألة المسائل هذه للمعدة أو للضمير؟ هل للبطولة شأن في حياة الاقوام أو هي في حياة الاقوام صفر على اليسار؟ هل المادة وحدها هي الترجمان المفسر للتاريخ أو لهذا التاريخ مفسرات أخرى قد تهزم تفسير المادة وتنقضه وتتحداه؟

في موقف الفصل هذا نجحت الدولة الطارئة كأنما بعث بها الغيب فيصلا للتفرقة في هذا التنازع بين الضمير والمعدة على مستقبل الأمم ومصير الجماعات الانسانية

نجحت هذه الدولة الطارئة من جهة لتبسط حكمها على مسافة من الارض ، ومن الجهة الاخرى لتبسط حكمها على مسألة المسائل وقضية القضايا ، وتصحح للمفكرين آراءهم وتصحح للعقول مناهجها في التفكير ، وتضع الاسناد بين القائلين بالمذاهب السياسية أو الاجتماعية عملا لا قولا ،

وواقعا لا جدلا ، بل عملا واقعا فى جثمان يملأ الاتفاق ،
ويخصيه الحساب بألوف الفراسخ وملايين الأرواح .

وقد وصلت اليئنا ، ونحن نكتب الصفحات الاخيرة من
هذا الكتاب ، مجموعة البحوث الدولية عن السنة المتداخلة
بين سنتى ١٩٥٠ و ١٩٥١ ، ونعنى بها المجموعة التى
تطبعها جامعة هارفارد باشراف الاستاذ بادلفورد Padelford
العالم الحبير بشؤون الدراسات الدولية ، فاذا بقيام
الباكستان قد دخل فى عداد الاسانيد التى تجدد المقررات
والمعلومات عن بواعث التاريخ الكبرى وعن التعريف
الصحيح لمعنى الأمة ومعنى الجنس أو السلالة

يقول سير ارنست باركر فى باب القومية على ضوء
التجارب العصرية : « ليست الأمة حقيقة بدنية من دم واحد
ولكنها حقيقة عقلية أو نفسية من تراث واحد »

واستطرد البحث الى العامل الدينى فى تكوين الأمم
فقال الاستاذ : « كان الرأى الشائع الى زمن قريب أن أثر
الدين فى تكوين الأمم يتضاهل ويضمحل ، وهذا الاعتقاد
فى تضاؤل أثر الدين فى شؤون السياسة يتطلب التنقيح
بعد قيام دولتين على أثر الحرب قائمتين على الوشائج الدينية
وهما دولة الباكستان المسلمة ، ودولة اسرائيل اليهودية »

ثم استطرد الباحث الى سحر البطولة وفعله فى استجاشة
الآمال والأحلام بين الأمم الاسيوية فى العصر الحاضر ،
فاعتد « الشخصيات » المقدسة عاملا من أقوى العوامل فى
تطور الأمم وتحويل مجراها

من هذا الجانب الفسيح الرحاب ينظر الى قضية الباكستان كل من ينظرون الى حاضر الانسان ومصيره ، والى الدوافع الفعالة في حركات آحاده وجماعاته ، ولا ينحصر النظر الى تلك القضية في نطاق المسائل الشرقية والمسائل الاسلامية ، ومهما يكن دين المعتقد او رايه في الأديان فليس محور النظر هنا عقيدة مسلم او عقيدة مسيحي ، او عقيدة برهمي ، او تفضيل عقيدة على عقيدة ، او اثبات عقيدة وتفنيد أخرى ، وانما محور النظر هو : معدة او ضمير ؟ جسد او روح ؟ بطولة انسانية او تكرار اعداد وارقام

ومن فضل الباكستان في نشأتها انها قامت فرجحت في ميزان التاريخ جانب الضمير ، ومن حق كل مؤمن بعقيدة يدين بها ضميره ان يغتبط بهذا الترجيح ، سواء في ذلك المسلمون والبرهميون

موازنه بین غاندی و جناح

ما وراء التاريخ .. كل تاريخ

علم وزير انجليزى من أحرار العمال أن الهند تمضى فى طريق الحرية لانه رأى فيها زعيما يملك شجاعة الراى ويواجه بها المثات من المخالفين منفردا مصرا على استقلاله ، وهو محمد على جناح

والعلامة التى لمحتها فراسة السياسى الحبير علامة صادقة ولكن هناك علامة اصدق منها على استعداد الهند للحرية ، وهى انها احتاجت الى زعيمين صالحين لقيادتها فى طريق الحرية فوجدتهما حيث احتاجت اليهما ، وهما غاندى فى الهند ، ومحمد على جناح فى الباكستان كلاهما صالح لقيادة أمته

وكلاهما عمل غاية ما يرمى من الزعيم لاداء أمانته كلاهما رسم الخطة التى تكره المستعمر على الجلاء، فنفذت كما رسم ، وان اختلفا بينهما فيما رسماه وكلاهما ولا شك كان مخلصا لمبادئه ، مخلصا لدعوته، مخلصا فى وجهة نظره ، ولهذا لزم الوجهتين قائدان ، ولزم كلا منهما أن يقف أمام صاحبه موقف المعارضة والخلاف واذا رأينا أن أحدهما كان أقرب الى الدهاء وان الآخر كان أقرب الى الصراحة فذلك هو حكم القضيتين عليهما ،



غاندى وجناح

او ذلك هو حكم الاخلاص عند كل منهما لقضيته ووجهة نظره

كان غاندى يطلب التغليب والتسليم بسيادة واحدة ،
ولا معدى لمن يطلب هذا من محايلة ومحاولة
وكان جناح يطلب الانفصال ويرفض السيادة الواحدة ،
ولا معدى لمن يطلب هذا من صراحة ومجاهرة بكل ما يريد
ان المقابلة بين العظماء انفع الدراسات النفسية ، فهي
دراسة نافعة لفهم حقيقة الانسان وفهم حقيقة الجماعات ،
ونافعة لكل من يعنيه ان يحسن تقدير الاعمال الكبرى
والدعوات الشاملة ، ونافعة لمتعة العقل وتوسيع آفاقه

وما من مقابلة أو موازنة بين عظيمين تخلو من منافعتها
الفكرية والعملية في جميع هذه الاغراض
الا أن الموازنة بين الزعيمين الهنديين تذهب بنا الى مدى
اوسع جدا من الموازنات الشائعة بين الزعماء من قبيل واحد
أو من أنماط متعددة ، لانها تكشف لنا النقاب عن سر من
أسرار التاريخ طالت فيه المناقشة ، بل طالت فيه المكابرة ،
ولا تزال تطول

هل المرجع في التاريخ الى ضمير الانسان ، او الى المادة
التي توزن حيننا بميزان الطعام وتوزن حيننا بميزان النقد
في الاسواق ؟

والمقابلة بين الزعيمين الهنديين تجيب عن هذا السؤال
جوابا يحار في نقضه من يستضعفون عمل الضمير ويرجعون
بكل عامل من عوامل التاريخ الى « المادة » بمختلف الاسماء
ها هنا رجلان ولدا في اقليم واحد ، وهو اقليم راجكوت
و درجا في جيل واحد ، وهو الجيل الذي نشأ في النصف
الثاني من القرن التاسع عشر

وتكلما في صباهما بلغة واحدة وهي اللغة الكوجراتية
ونبتا في طبقة واحدة ، وهي الطبقة الوسطى المتيسرة
التي يغلب عليها اليوم اسم البرجوازية
وتعلما على نسق واحد ، فدرسا القانون في الجامعات
الانجليزية ، بعد اتمام الدراسة الثانوية في البلاد الهندية
والسن بينهما متقاربة ، بل التكوين البدني فيهما
يتقارب الى الدقة والنحافة ، وان كان أحدهما الى الطول
والآخر الى القصر

واشتغلا بالمحاماة أولا ثم اشتغلا بالسياسة فى ميدان
واحد وهو ميدان القضية الهندية أمام الاستعمار البريطانى
كما يتولاها حزب المؤتمر
ثم حكمت العقيدة الدينية حكمها فاذا بكل منهما فى طرف
من طرفين لا يلتقيان

وليس المفترق بينهما فى برامج السياسة التى تتغير
بتغير الحكومات والاحزاب ، بل هو مفترق فى أطوار الفكر
والمزاج كأنهما ينتميان الى أبعد الاقاليم والبيئات ، ولم
ينتميا قط الى اقليم واحد وطبقة واحدة ، أو يتكلما فى
المهد والصبا بلغة واحدة ويتخرجا فى الشباب والرجولة
من معاهد تعليم واحد

هذا يقاطع الحضارة ، وذاك يستزيد من الحضارة
هذا يرى القوة فى تحطيم الصناعة الكبرى ، وذاك يرى
القوة فى تأسيس هذه الصناعة الكبرى وتدعيمها
هذا يعول على المقاومة « السلبية » على شرعة الهمسا ،
وذاك يعول على التنظيم والتأهب بالجماعات المنظمة للعمل
فى حينه ، وكما تقتضيه دواعيه

هذا يسميه قومه « المهاتما » وذاك يسميه قومه القائد
الأعظم ، وفى مفترق التسمية مفترق المسميات ، كأبعد
ما يكون الافتراق

لم يختلفا قط الا فى عقيدة الضمير ، ولم يتفقا فى شىء
قط بعد ذلك ، حين دخلا فى ميدان العمل الحاسم ، وكلاهما
مخلص لعمله بغير جدال

والرجلان فى هذا مثالان صادقان للامتين : أمة الهند

الكبرى من البرهميين ، وامة الباكستان الناشئة من
المسلمين

لم تكن الوحدة الجغرافية هي التي فعلت فعلها الاكبر
في نشأة الباكستان ، فانها شطران من الارض بين الشرق
والغرب يفصلهما أكثر من ألف ميل

ولم تكن الوحدة الاقتصادية هي التي فعلت فعلها الاكبر
في نشأتها ، لأن السكان في شرقها يزدحمون كل سبعمائة
في الميل المربع ، ولا يزيدون في غربها على مائة في الميل ،
ومحصولاتها الرائجة تصنع في غير مصانعها ، ومنها جهات
لا محصولات فيها ولا صناعات ، وجهات تتعلق مرافقها
بالشقة الاخرى من الهند البرهمية

ولم يكن جنس السلالة هو الفارق بين الهند والباكستان ،
فان محلل الدم لو أغمض عينيه وحال دم ألف من أهل
الباكستان ، ودم ألف من أهل الهند خرج من التحليل
بنتيجة متقاربة ، أو لكان الفارق بينهما كالفارق بين ألف
من الباكستان وألف أيضا من الباكستان

وليس في وسع أحد أن يبرز عاملا واحدا مفسرا للتاريخ
كما برز عامل العقيدة وحدها في الباكستان ، فهو العامل
الموجود حيث تختفي جميع العوامل أو توجد على ضعف
وتفرق ، وهو العامل الذي قام وحده في وجه كل العوامل ،
فكان له قضاؤه الذي لا مرد له ولا معقب عليه

ويتراهي لنا من مراجعة التاريخ الحديث خاصة في بلاد
الهند أن هذه البلاد ساحة لا نظير لها لتحرير الأصول
التاريخية التي يصعب تحريرها في أكثر بلاد العالم . لان

تاريخها قد تكفل بعزل كثير من العوامل التي توقع اللبس
فى ذهن المؤرخ فلا يدري متى تعمل مشتركة ومتى تعمل
على انفراد

ان الكيماوى الذى يجرب فعل المواد فى الاجسام يعزلها
واحدا فواحدا حتى يتسنى له الجزم بفعل كل مادة فى
الجسم الذى يختبره

والأمم الشرقية والغربية قد اختلطت فيها عوامل الوطنية
والجامعة الدينية والتيارات الخارجية وحروب الطبقات
والطوائف ، فكل ما ينسب فيها الى فعل عامل من هذه
العوامل يجوز أن يشترك فيه عامل آخر ، ويصعب تقدير
الباعث فيه والغاية على وجه صريح خلو من اللبس والاختلاط

بيد أن تاريخ الهند قد عزل التيارات الخارجية بعد
سيطرة المستعمرين على البلاد الهندية ، فكل ما وصل اليها
من تيارات الخارج فانما كان من سلطان أولئك المستعمرين
أو مما يأذن به ذلك السلطان

هذا الذى عنينا حين قلنا ان تاريخ الهند الحديث ،
خاصة ، قد تكفل بعزل كثير من العوامل التي توقع اللبس
فى ذهن المؤرخ فلا يدري متى تعمل مشتركة ومتى تعمل
على انفراد

ومن أثر هذا العزل فى دراسة تاريخها ان امتحان دلائل
القصد أو المصادفة فى التاريخ يتيسر هنا بأقل ما يمكن
من دواعى اللبس والاشكال

عرضنا لهذه المسألة فى كتابنا عن غاندى فسالنا : « هل

للتاريخ الانساني وجهة معينة نستطيع أن نتبينها من جملة
الحوادث الماضية ؟

وقلنا انه سؤال يتوقف جوابه على سؤال آخر وهو :
ماذا عسى أن تكون وجهة التاريخ المعقولة اذا تخيلنا له
اتجاها يتوخاه على نهج مرسوم ؟

والجواب : شىء يتعلق بالفرد ، و شىء يتعلق بالناس كافة
أو بالانسانية جمعاء . فالشىء الذى يتعلق باتجاه الانسان
الفرد هو ازدياد نصيبه من الحرية والتبعية ، والشىء الذى
يتعلق بالانسانية جمعاء هو ازدياد نصيبها من التعاون
والاتصال

« وزيادة نصيب الفرد من الحرية والتبعية هو المطلب
الشامل الذى تنطوى فيه جميع المطالب ، فهو أشمل من
القول بازدياد العلم أو ازدياد القوة أو ازدياد الفضائل
والملكات ، لان هذه الحاصل كلها تتمثل فى زيادة استعداده
لحق الحرية وزيادة قدرته على احتمال التبعية

» وكذلك يقال عن التعاون بين عناصر الانسانية برمتها ،
فهو أشمل من القول بارتقاء النظم السياسية وارتقاء
المعاملات التجارية وارتقاء الاخلاق الاجتماعية ، لان هذه
الحاصل كلها تتمثل فى التقارب بين الامم والتعاون بينها
على وسائل الوحدة والاتصال ،

« هذا وذاك هما الوجهة المعقولة التى نتخيلها للفرد
وحده ، وللناس كافة ، اذا كان للتاريخ وجهة معقولة تدل
عليها الحوادث الماضية

ثم قلنا : « ولم تكن الحروب ولا المطامع حائلا دون هذا

الاتجاه ، بل لعلها كانت من دوافعه ودواعيه ، فأسفرت كل حرب من حروب الرومان والفرس والعرب والصليبيين والعثمانيين عن تشابك بين ناحية وناحية من الكرة الأرضية ، ومن جراء هذه الحروب تشابكت آسيا وأوربة وأفريقية ، وانفتح الطريق الى القارات المجهولة

« واذا نظرنا الى أثر الحروب في المخترعات وتسخير قوى الطبيعة جاز لنا أن نقول : ان وسائل المواصلات قبل غيرها مدينة للحروب بالشىء الكثير ، فماذا يكون الطيران والرادار ومحركات القوى جميعا لولا ضرورات الحروب واشتراك غريزة الدفاع عن النفس فى سياق هذا المضمار ؟ بل نحن نتعلم من التاريخ ان الدولة الفاتحة لا تدوم الا بمقدار ما لدوامها من رسالة عالمية . فدولة الرومان دامت حين كانت لازمة للعالم وأخذت فى الانحلال حين بطلت رسالتها العالمية . . . »

واستطردنا الى دلائل ذلك الاتجاه فى تاريخ الهند وفى حروب الاستعمار الاوربى « وهى محنة طامة على الشرق بأسره ، نقم منها الشرق لما أصابه من بلواها ورغب فيها الغرب لأمر أراده وأرادت الحوادث غيره ، ولم يخطر للشرق ولا للغرب على بال »

ومما أرادته الحوادث ولم يرده الغرب المستعمر اجتماع كلمة الهند فى وحدة تحارب الغرب المستعمر . قلنا انها - أى الهند - « لم تكن قط وطنا واحدا فى عصر من العصور ، لانها كانت تتألف من شتى العناصر ، وشتى المذاهب ، وشتى اللغات ، وشتى المصالح ، وشتى المواقع الجغرافية .

فلم تدافع قط دفاعا واحدا ، ولم تشترك قط فى هجوم واحد ، ولم تجمع قط على مطلب واحد بينها وبين أبنائها ، ولا بينها وبين الغرباء عنها والمغيرين عليها ، فلما ابتليت باستعمار واحد طغى عليها من أقصاها الى أقصاها وجد فيها وطن واحد يواجه ذلك الاستعمار بمطلب واحد ، وهو مطلب الخلاص منه ، كيفما تعددت وسائله بين طلابه ،

وقد تعددت وسائله بين طلابه فكانت الباكستان وكانت الهند ، ولكنهما قبل أن تصبحا دولتين كانتا « وحدة » متفقة على مكافحة المستعمر واكمراه على الجلاء

ولو شئنا لقلنا ان قيام الدولتين بعد الخلاص من الاستعمار كان نفعاً مضافاً الى نفع . لانه يستصفي لكل منهما جهودها ، ويفرغها لرسالتها التى هى اقدر عليها ، ويعفيها من المنازعات الداخلية ، ويفتح الباب للتعاون بين الدولتين فى السياسة العالمية والانسانية . ولكننا نكتفى باجتماع القوى على محاربة السيطرة الاجنبية ، لانه النتيجة الطبيعية التى لا خلاف عليها : نتيجة طبيعية غريبة لمقدمات طبيعية اغرب منها



« اقصد ذا المسير ام اضطرار ؟ »

ان المؤرخ الذى لا تلجئه هذه الاطوار واشباهها فى تاريخ الهند الى القاء هذا السؤال على نفسه يتعرض للنظر فى التاريخ بعين لا تبصر ، وليس اعمى من لا يريد ان يرى كما كان يقول جناح

ومسألة « الزعيم المناسب » في الحركة الهندية الحديثة
هي إحدى المسائل التي تلجىء المؤرخ إلى تكرار ذلك
السؤال ، ولا كذلك مسألة الزعيم في كثير من الأقطار ولا سيما
الأقطار الأوربية ، فإن مكان الزعيم فيها يمتلئ كما يمتلئ
مكان الحرف الناقص في الصحيفة المطبوعة ، مكان محدود
وحرف يتم الكلمة كسائر الحروف ، وكلمة معروفة
التهجئة في كل الصندوق

أما الزعيم الذي يأتي إلى مكانه في الحركة الهندية فهو
أشبه بالحرف الذي يتعين به هجاء الكلمة ويتعين معناها ،
ولا تتم الكلمة قبل استقراره في مكانه

كم تصفية للزعماء تمت قبل بعث العصبة الإسلامية
كم تصفية للحوادث سبقت قبل أن تنهيا باكستان
لزعامه جناح ، وقبل أن ينهيا جناح لزعامه باكستان
كم تطور جناح ، وكم تطورت حوادث الهند ، وكم تطورت
حوادث آسيا بين الصين واليابان والسياسة الأمريكية
والسياسة الأوربية على التعميم وسياسة بريطانيا العظمى
على التخصيص ؟ وكم بدل هذا التطور من عزائم الدول
وعزائم القادة قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها
وكم كان لهذا التطور من شأن في أعداد كل خطة وأعداد
كل قضية وأعداد كل زعيم
أقصد أم اضطرار ؟

سؤال لا بد منه على الأقل ، أن كان هناك بد من الجواب
على نحو معلوم

وتحضرنا هنا أحجية الشمسية التي أشار إليها جناح

في بعض خطبه ، فقد ضحك الناس من أول رجل شوهد في
الطريق وهو يحمل شمسية . . . فلما كثر حاملوها ضحك
حامل الشمسية الأول من أولئك الضاحكين المتعجلين
مثل للزعيم الذي يبده الناس بفكرة غريبة ، ثم لا تلبث
تلك الفكرة الغريبة أن تصبح مالوفا كاشيع المألوفات
والمثل صالح للقياس عليه

فمتى يكف الناس عن الضحك من حامل الشمسية ؟ انهم
يكفون عن الضحك منه حين تكون حاجتهم الى الشمسية
قائمة ولكنها مجهولة ، فيسبقهم أي انسان الى اثبات هذه
الحاجة ، ويلحقون به بعد قليل

وفي هذه الحالة نسال : كيف وجدت الشمسية ؟ هل
وجدت لان حاملها الاول اخترعها او لان الناس يحتاجون
الى اختراعه ؟ ومن صاحب الاثر الفعال في هذه الحالة :
المخترع او الذين اخترعت الشمسية لاجلهم ، ومن اجل
حاجتهم اليها كفوا عن الضحك منه واستغراب مفاجاته ؟
وكيف احس الرجل بحاجة الناس ؟ اهي مصادفة ام هي
حس ام هي الهام على غير وعى منه ولا ارادة ؟
المحقق ان الشمسية تظل مضحوكا منها لو بقيت بدعة
لا تتكرر ، والمحقق انها تبقى بدعة لا تتكرر لو لم يشعر
الناس بالحاجة اليها

والاحجية هي : لماذا اتفق اختراعها والناس يضحكون
منها ، ولماذا اتفق اختراعها وهم مستعدون للعلم بلزومها ؟
هذا هو لغز التاريخ
مفاجأة غريبة يبدو بعد حين انها ليست بغريبة ،

ويتساءل الباحث : كيف تكون مقصودة وهي سخرية
الساخرين ؟ وكيف تكون مصادفة وهي حاجة مطلوبة ؟
بعض العقول يفسر الاحجية على طريقته فيقول اننا نحسب
الاختراع مقصودا مدبرا لاننا ننسى مئات من المفاجآت التي
ضحك الناس منها ثم ماتت ومات ذكرها لانهم لم يشعروا
بالحاجة اليها ، فاذا جاءت مفاجأة في حين الحاجة اليها فتلك
مصادفة صحت من مئات المصادفات التي عفى عليها النسيان
وبعض العقول يفسر الاحجية على طريقته فيقول : ان
« المصادفة » التي تصح ليست مصادفة ، لانها صحت
باسبابها ولم تصح باسباب غيرها ، ولم تدم بعد صحتها
بمصادفات اخرى اوجبت لها الدوام

وبين علماء الطبيعة خلاف كهذا الخلاف بين علماء التاريخ
هل وجدت العين بهذا التركيب لتنظر ؟

او هي قد نظرت لانها وجدت بهذا التركيب ؟

وبعبارة اخرى : هل هو قصد او اضطرار ؟

ونخال بعد تقليب السؤالين على شتى الوجوه ان الخلاف
بينهما كالخلاف بين القائل ان الغطاء يطابق آنيته والقائل ان
الآنية تطابق غطاءها !.. فالهم ان التوافق قد حصل

غير ان القائلين بالمصادفة يقولون انه حصل بعد مليون
سنة ولم يحصل بعد لمحة واحدة ، فهل هم على صواب ؟
ومن اين لهم ان تحقيق الغرض مرهون بوقت محدود ،
يشترط فيه على الدوام انه وقت قصير ؟

ان الفريقين يتفقان ويتقابلان في وسط الطريق ، فكلهم

يقولون أن الوظيفة تخلق العضو الذي يؤديها ، وان ارادة النظر هي التي اوجدت اشكالا والوانا من النواظر

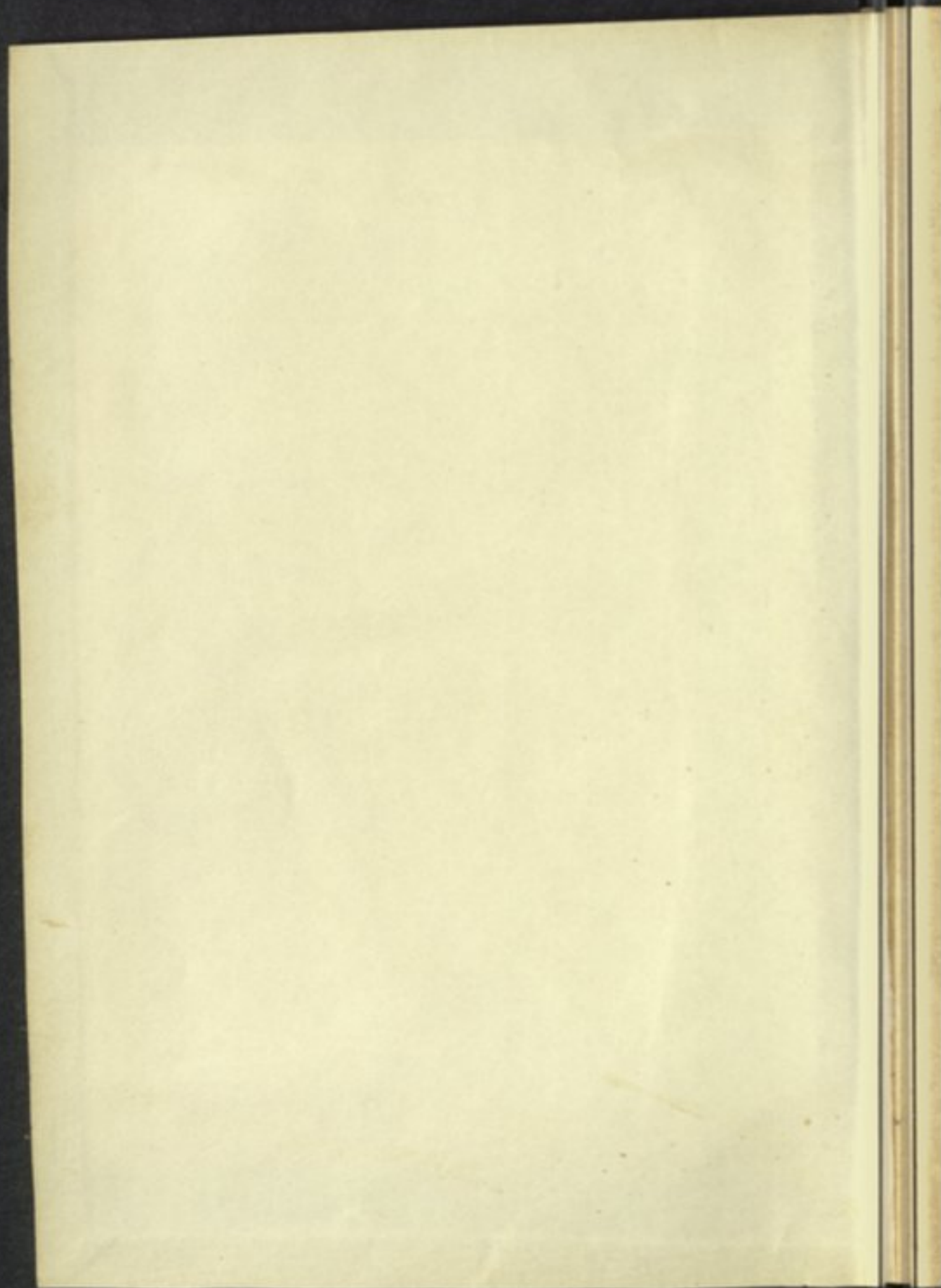
ارادة النظر تسبق النظر

حسن ... هذا في بنية حيوان صغير أو كبير ، فكيف اذا كانت البنية بنية الكون بما رحب من الأزال الى الأباد ؟ ليست ثمة وظيفة تتبعها أعضاء تناسب المقام ؟ ليست ثمة ارادة تتبعها أعمال صالحة لاغراضها ؟ ايشرط في الوظيفة التي تسبق العضو ان تكون صغيرة محصورة ويمتنع عليها ان تكون عظيمة غير محصورة ؟ يفرض عليها ان تكون جزءا من الكون ويحرم عليها ان تكون في الكون بما رحب من الأزال الى الأباد ؟

غاية الخلاف بين القائلين بالمصادفة والقائلين بالقصد في التاريخ وفي الحياة العضوية ان الغطاء يطابق آنيته وان الآنية تطابق غطاءها

او غاية الخلاف على وضع آخر ان المطابقة تمت في عشرات الملايين من السنين او هي قد تمت في لمحة وما دونها
خلاف على العرض لا على الجوهر

واذا كانوا مع هذا الخلاف يتفقون على سبق الوظيفة للعضو ، وسبق الارادة للوظيفة ، فلا حرج عليهم ان يسموا الوظيفة التي تريد للكون كله بما شاءوا من الأسماء ، وليفهم من شاء ما بدا له ان يفهم من القصد ، وليفهم من شاء ما بدا له ان يفهم من المصادفة ، فانهما كلمتان ، معناهما سواء



DATE DUE

SAFET LIB.

7 MAY 1982

SAFET LIB.

9 APR 1982

923.2549:J16aA:c.1

العقاد، عباس محمود

القائد الاعظم محمد علي جناح

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01047333

923.2549

J612A

923.2549

J61aA

J612aA